رواية

أَميرُ البِحَارِ
وَرِحْلَةُ الزَّمَانِ

رواية

أَميرُ البِحَارِ وَرِحْلَةُ الزَّمَانِ

تأليف

أ.د/ علي راشد

أستاذ التربية ـ جامعة حلوان

الحائز على جائزة الدولة التشجيعية في أدب الأطفال

الدار النموذجية للطباعة والنشر

صيدا - لبنان

شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: 11/8355
تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
بوليفار د. نزيه البزري - ص.ب: 221
تلفاكس: 720624 - 729259 - 00961 7 729261
صيدا - لبنان

• المطبعة العصرية
كفر جرة - طريق عام صيدا - جزين
07 230195 - 00961 7 230841
تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875
صيدا - لبنان

الطبعة الثانية

2019 م - 1440 هـ

Copyright© all rights reserved
جميع الحقوق محفوظة للناشر
لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو بالتصوير أو التسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدماً.

alassrya@terra.net.lb
E. Mail: alassrya@cyberia.net.lb
info@alassrya.com

موقعنا على الإنترنت
www.alassrya.com

المقدمة

كتبت الأقدارعلى الشاب الشجاع المؤمن (عمر خان) أن يواجه الأخطار، حتى أنه واجه الموت نفسه، فها هو يواجه بسفينته التجارية سفينة القراصنة، ورغم تغلب هؤلاء القراصنة عليه، إلا أن الأقدار كانت رحيمة به، فألقت به في جزيرة "طالوس" ليصبح عبداً في قصر الأمير "محراز"، بعد أن كان أميراً للبحار، وهناك يقابل الفتاة رائعة الجمال "جيجي بان" الأميرة سابقاً والجارية حالياً، فيدفعهما الاعجاب والحب المتبادل أن يواجها معاً الأهوال وذلك بالاستعانة بالله أولاً ثم بصداقة "فيروز" صديق (عمر خان).

وتتوالى المغامرات والأخطار على كل من (عمر خان) و (جيجي بان)، ولكنهما وقفا بكل شجاعة وتحدٍ أمام تلك الأخطار.

وحتى الطبيعة وأهوالها لم ترحمهما، فجاءت بكل قسوتها عليهما، فوقفا أمام أهوال هذه الطبيعة بكل تحدٍ وجسارة.

وتدور أحداث مثيرة وشيقة في هذه الرواية ليتعرف القارئ على جوانب الحياة المختلفة أحياناً، والعجيبة أحياناً أخرى.

فيسعد بقراءتها الكبير، ولا يمل منها كل صغير، وذلك في أسلوب شيق وجذاب.

وعلاوة على ذلك فإن هذه الرواية مزودة برسومات معبرة، وأشكال جذابة، تزيد فيها الإثارة والإعجاب والتشوق.

الفَصْلُ الأَوَّلُ

عُمَرْخَانُ ... أَصْلُ الْحِكَايَةِ

فِي السَّنَوَاتِ الْأُولَىٰ مِنَ الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ الْمِيلَادِي نَشَأَ فِي إِحْدَىٰ الْبُلْدَانِ الَّتِي تَقَعُ عَلَىٰ الْخَلِيجِ الْعَرَبِيِّ فَتًى يُدْعَىٰ «عُمَرُ خَانِ»، وَهُوَ وَحِيدُ وَالِدَيْهِ وَقُرَّةُ عَيْنِهِمَا، وَقَدْ أَحْسَنَ الْوَلِدَانِ تَرْبِيَةَ ابْنِهِمَا، فَعَلَّمَاهُ فُنُونَ الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ وَقَوَاعِدَ الْحِسَابِ وَأُصُولَ الدِّينِ وَالْخُلُقِ الْقَوِيمِ، وَحُسْنَ مُعَامَلَةِ الْآخَرِينَ، حَتَّىٰ أَصْبَحَ يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي: الصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالشَّهَامَةِ وَالْإِقْدَامِ وَالْإِيثَارِ، وَعِلَاوَةً عَلَىٰ كُلِّ ذَلِكَ فَقَدْ وَهَبَهُ اللهُ تَعَالَىٰ وَسَامَةَ الوَجْهِ وَتَنَاسُقَ الْجِسْمِ لِيُصْبِحَ نَمُوذَجًا يَتَمَنَّاهُ كُلُّ أَبٍ لِوَلَدِهِ، وَكُلُّ أُمٍّ لِوَلَدِهَا.

وَعِنْدَمَا بَلَغَ «عُمَرُ خَان» عِشْرِينَ عَامًا صَارَ السَّاعِدَ الْأَيْمَنَ لِأَبِيهِ التَّاجِرِ الْكَبِيرِ الَّذِي يَذْهَبُ فِي سَفِينَةٍ كَبِيرَةٍ إِلَىٰ الشَّوَاطِئِ الْغَرْبِيَّةِ لِلْهِنْدِ، وَإِلَىٰ الشَّوَاطِئِ الشَّرْقِيَّةِ لِأَفْرِيقْيَا، لِيُتَاجِرَ فِي الْعَدِيدِ مِنَ الْبَضَائِعِ مِثْلَ: ثِمَارِ الْأَشْجَارِ، وَالتَّوَابِلِ، وَالْأَعْشَابِ الطِّبِّيَّةِ، وَالْزُّيُوتِ، وَاللِّبَانِ، والْصَّمْغِ الْعَرَبِيِّ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَحْتَاجُهُ النَّاسُ فِي مَعِيشَتِهِمْ، وَكَانَ الْعَائِدُ الْمَالِي لِهَذِهِ الرِّحَلاَتِ التِجَارِيَّةِ ضَخْمًا، وَالمَكَاسِبُ هَائِلَةٌ، حَتَّىٰ صَارَ وَالِدُهُ مِنْ أَغْنَىٰ أَغْنِيَاءِ بَلْدَتِهِ، وَكَبِيرُ وُجَهَائِهَا، يُكِنُّ لَهُ الْجَمِيعُ الْوُدَّ وَالْاحْتِرَامَ وَالتَّقْدِيرَ.

وَعَلَّمَ الْوَالِدُ ابْنَهُ «عُمَرُ خَان» ـ خَيْرَ شَبَابِ الْبَلْدَةِ ذَائِعَ الصِّيْتِ ـ قِيَادَةَ السُّفُنِ، وَفُنُونَ الْإِبْحَارِ بِهَا فِي أَعَالِي الْبِحَارِ وَالْمُحِيطَاتِ، وَالذَّهَابِ إِلَىٰ بِلاَدِ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ، كَمَا عَلَّمَهُ فُنُونَ التِّجَارَةِ، وَشِرَاءَ الْبَضَائِعِ، وَبَيْعِهَا، بِحَسَبِ احْتِيَاجَاتِ أَصْحَابِ تِلْكَ الْبِلاَدِ، وَكَيْفَ يُقِيمُ الْعِلاَقَاتِ والصَّدَاقَاتِ بَيْنَ كِبَارِ تُجَّارِ هَذِهِ الْبِلاَد.

وَعِنْدَمَا بَلَغَ الْفَتَىٰ الْخَامِسَةَ وَالْعِشْرِينَ مِنْ عُمُرِهِ، كَانَ قَدْ أَتْقَنَ فُنُونَ التِّجَارَةِ الْبَحَرِيَّةِ، لِذَا فَقَد اشْتَرَىٰ لَهُ وَالِدُهُ سَفِينَةً تِجَارِيَّةً ضَخْمَةً ـ لَيْسَ لَهَا فِي وَقْتِهَا مَثِيلٌ ـ وَسُمِّيَتْ بِاسْمِ الْفَتَىٰ «عُمَرُ خَان»، وَجُهِّزَتْ بِكَافَّةِ التَّجْهِيزَاتِ وَالْأَشْرِعَةِ مَا يُؤَهِّلُهَا لِلْقِيَامِ بِالرِّحَلاَتِ الطَّوِيْلَةِ فِي أَعَالِي الْبِحَارِ، وَتُنَافِسُ غَيْرَهَا مِنَ الْسُّفُنِ التِّجَارِيَّةِ فِي سُرْعَتِهَا واتِّسَاعِهَا.

وَبِمُرُورِ الْوَقْتِ اسْتَقَلَّ فَخْرُ الشَّبَابِ «عُمَرْ خَان» فِي رِحَلاَتِهِ وَتِجَارَتِهِ عَنْ أَبِيهِ، وَصَارَ مِنَ التُّجَّارِ الْمَشْهُورِينَ فِي كَثِيرٍ مِنْ بُلْدَانِ آسْيَا وَأَفْرِيقْيَا، وَخَاصَّةً بِلاَدُ الْخَلِيجِ

الْعَرَبِيِّ، وَشَهِدَ لَهُ الْجَمِيعُ لَيْسَ بِخُلُقِهِ الرَّفِيعِ وَأَدَبِهِ الْجَمّ فَقَطْ، بَلْ أَيْضًا بِمَهَارَاتِهِ وَكَفَاءَاتِهِ فِي التِّجَارَةِ مَعَ أَكْبَرِ التُّجَّارِ فِي كُلِّ البِلاَدِ السَّاحِلِيَّةِ الَّتِي يَجُوبُهَا شَرْقًا وَغَرْبًا وشِمَالاً وجَنُوبًا.

وَفِي إِحْدَىٰ اللَّيَالِي، وَبَعْدَ زِيَارَةٍ قَامَ بِهَا بَعْضُ أَصْدِقَاءِ وَالِدِ «عُمَرْ خَان»، وَالَّتِي تَحَدَّثُوا فِيهَا عَنْ خُلُقِ وَلَدِهِ عُمَر، وَرَحَلاَتِهِ النَّاجِحَةِ بِسَفِينَتِهِ الضَّخْمَةِ الَّتِي تَحْمِلُ اسْمَهُ، وَبَعْدَ أَنْ رَحَلَ الْأَصْدِقَاءُ، وَظَلَّ الْوَالِدُ بِمُفْرَدِهِ، وَأَخَذَ يَتَذَكَّرُ يَوْمَ أَنْ رَزَقَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِوَلَدِهِ الْوَحِيدِ، وَرَأَىٰ عَلَىٰ شَرِيطِ ذِكْرَيَاتِهِ كَيْفَ أَقْبَلَتْ تِلْكَ الْمَرْأَةُ الْعَجُوزُ الَّتِي سَاعَدَتْ زَوْجَتَهُ فِي عَمَلِيَّةِ الْوِلاَدَةِ، وَقَالَتْ وَهِيَ تَبْتَسِمُ فِي فَرْحَةٍ غَامِرَةٍ:

- أَبْشِرْ ... أَبْشِرْ يَا بُنَيّ، فَقَدْ رَزَقَكَ اللهُ بِمَوْلُودٍ ذَكَرٍ جَمِيلِ الْمُحَيَّا، وَلَهُ مُسْتَقْبَلٌ بَاهِرٌ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَىٰ.

وَفِي سَعَادَةٍ وَسُرُورٍ بَالِغٍ سَأَلَ الْوَالِدُ الْمَرْأَةَ الْعَجُوزَ قَائِلاً:

- وَمَا سِرُّ هَذِهِ النُّبُوءَةِ الرَّائِعَةِ لِمُسْتَقْبَلِ وَلَدِي؟

أَجَابَتْ الْعَجُوزُ وَالْابْتِسَامَةُ الْعَرِيضَةُ لَمْ تُفَارِقْ وَجْهَهَا الَّذِي خَطَّ الزَّمَنُ فِيهِ خُطُوطًا كَثِيرَةً:

- إِنَّ عَلَى كَتِفِهِ الْأَيْمَنِ شَامَةً حَمْرَاءَ تُشْبِهُ قَلْبًا صَغِيرًا بَيْنَ سِيْفَيْنِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ سَيَكُونُ لَهُ شَأْنٌ عَظِيمٌ فِي مُسْتَقْبَلِ حَيَاتِهِ.

وَأَفَاقَ الْوَالِدُ مِن ذِكْرَيَاتِهِ، فَابْتَسَمَ وَأَخَذَ يُتَمْتِمُ فِي سَعَادَةٍ:

- حَقًّا... لَقَدْ صَدَقَتْ نُبُوءَتُكِ أَيَّتُهَا الْعَجُوز الطَّيِّبَة، يَرْحَمُكِ الله.

وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ اسْتَعَدَّ الْفَتَىٰ «عُمَرُ خَان» كَعَادَتِهِ لِلْقِيَامِ بِإِحْدَى رَحَلاَتِهِ التِجَارِيَّةُ إِلَىٰ أَعَالِي الْبِحَارِ، وَذَهَبَ لِيُوَدِّعَ وَالِدَيْهِ اللَّذَانِ أَخَذَا يُقَبِّلاَنِهِ فِي لَهْفَةٍ غَيْرِ مُعْتَادَةٍ، وَالَّتِي لَمْ يَدْرِ لَهَا الْفَتَىٰ أَيَّةَ مُبَرِّرَاتٍ، فَهِيَ رِحْلَةٌ مِثْلَ عَشَرَاتِ الرَّحَلاَتِ الَّتِي قَامَ بِهَا

مِنْ قَبْلُ، وَالَّتِي يَغِيبُ فِيهَا عِدَّةَ أَسَابِيعَ ثُمَّ يَعُودُ إِلَيْهِمَا مَرَّةً أُخْرَىٰ سَالِمًا غَانِمًا.

وَعلَلَّ «عُمَرُ خَان» ذَلِكَ بِأَنَّ وَالِدَيْهِ كَبُرَا فِي السِّنِّ، وَلَمْ يَعُودَا يَتَحَمَّلاَنِ فِرَاقَ ابْنِهِمَا الْوَحِيدِ، وَسَافَرَ الْفَتَىٰ.

وبَعْدَ مُرُورِ عِدَّةِ أَيَّامٍ عَلَىٰ رَحِيلِهِ، شَاهَدَتْ أُمُّهُ دَمْعَةً تَفِرُّ مِنْ عَيْنِ أَبِيهِ، فَارْتَجَفَ قَلْبُهَا فِي خَوْفٍ، وَقَالَتْ في جَزَعٍ:

- لِمَ هَذِهِ الدَّمْعَةُ يَا أَبَا عُمَر؟

رَدَّ الأَبُ عَلَىٰ زَوْجَتِهِ قَائِلاً بِنَبْرَةِ حُزْنٍ:

- قَلْبِي يُحَدِّثُنِي بِأَنَّ مَكْرُوهًا سَيَقَعُ لِوَلَدِنَا الْوَحِيدِ يَا أُمَّ عُمَر.

فَزَادَ تَخَوُّفُ الْأُمِّ وَقَلَقُهَا عَلَىٰ وَلَدِهَا وَتَسَاءَلَتْ فِي لَهْفَةٍ:

- وَمَا السَّبَبُ الَّذِي جَعَلَكَ تَقُولُ هَذَا يَا أَبَا عُمَر وَتُوْجِعُ قَلْبِي؟

وَبِصَوْتٍ مِلؤُهُ التَّوَتُّرُ وَالْحُزْنُ أَجَابَ الْأَبُ:

- لَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي مَنَامِي بِالْأَمْسِ يَقِفُ فِي مُقَدِّمَةِ سَفِينَتِهِ وَهُوَ يَقُودُهَا بِمُفْرَدِهِ فِي بَسَالَةٍ، وَهِي تَمْخُرُ عُبَابَ بَحْرٍ أَمْوَاجُهُ عَالِيَةٌ كَالْجِبَالِ، وَرَأَيْتُهُ يُصَارِعُ تِلْكَ الْأَمْوَاجِ بِكُلِّ مَا أُوتِيَ مِنْ قُوَّةٍ، وَعِنْدَمَا نَادَيْتُ عَلَيْهِ لِمْ يَسْمَعْ نِدَائِي، وَاتَّجَهَ بِجِسْمِهِ بَعِيدًا عَنِّي، وَظَلَّتِ السَّفِينَةُ فِي صُعُودِهَا وَهُبُوطِهَا بِفَعْلِ الْأَمْوَاجِ حَتَّى اخْتَفَتْ، وَقُمْتُ مِن نَوْمِي مَفْزُوعًا، وَأَصْوَاتُ الْأَمْوَاجِ الْمُتَلاَطِمَةِ مَازَالَتْ تَرِنُّ فِي أُذُنِي.

وِفِي مُحَاوَلَةٍ لِلتَّخْفِيفِ مِنْ قَلَقِ زَوْجِهَا مِنْ هَذِهِ الرُّؤْيا قَالَتْ الزَّوْجَةُ:

- لاَ عَلَيْكَ يَا أَبَا عُمَر، إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلاَّقُ الظُّنُونِ، مَا هِيَ إِلاَّ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ، وَإِنْ شَاءَ اللهُ سَيَعُودُ إِلَيْنَا ابْنُنَا الْغَالِي سَالِمًا غَانِمًا.

قَالَتْ الْأُمُّ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ لِتُقَوِّي بِهَا عَزِيمَةَ زَوْجِهَا، وَلِتُبَدِّدَ الْمَخَاوِفَ مِنْ قَلْبِهُ، أَمَّا قَلْبُهَا هِيَ فَقَدْ كَادَ يَنْفَطِرُ مِمَّا سَمِعَتْهُ عَنْ رُؤْيَا زَوْجِهَا.

الفَصْلُ الثَّانِي

الْهُجُومُ الْمُرَوِّعُ

لَمْ يَكُنْ مَا شَاهَدَهُ وَالِدُ «عُمَرْ خَان» فِي مَنَامِهِ أَضْغَاثَ أَحْلاَمٍ، وَلاَ كَانَتْ خَيَالاَتٍ أَوْ أَوْهَامًا بَلْ كَانَتْ رُؤْيا مَنَامِيَّةً لَهَا مَغْزَاهَا وَأَحْدَاثًا لَهَا مَعْنَاهَا.

فَلَقَدْ سَارَتِ السَّفِينَةُ التِجَارِيَّةُ الضَّخْمَةُ «عُمَرُ خَان» بِقِيَادَةِ صَاحِبِهَا الشَّابِّ

الْعَرَبِيِّ الأَصِيلِ، بِرِفْقَةِ بَحَّارَتِهِ الْأَشِدَّاءِ الْمخْلِصِين، وَخَاصَّةً صَدِيقُ عُمُرِهِ «حَسَن» الَّذِي اعْتَبَرَهُ سَاعِدَهُ الْأَيْمَنَ فِي كَافَّةِ رَحَلاَتِهِ الْبَحَرِيَّةِ، وَكَافَّةِ صَفَقَاتِهِ التِّجَارِيَّةِ، فَلاَ يَتَّخِذُ قَرَارًا بِتَوْجِيهِ السَّفِينَةِ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّا، أَوْ إِلَىٰ جَزِيرَةٍ مَّا، حَتَّى يُشَاوِرَ صَدِيقَهُ «حَسَن» فِي هَذَا التَّوْجِيه، وَلاَ يُتَمِّمُ صَفْقَةً تِجَارِيَّةً إِلاَّ بَعْدَ أَنْ يَسْتَشِيرَ صَدِيقَ عُمُرِهِ فِي إِتْمَامِهَا، أَوْ إِلْغَائِهَا.

وَكَانَ الْفَتَى «عُمَرُ» يَحْمَدُ اللهَ تَعَالَىٰ دَائِمًا عَلَىٰ كُلِّ نِعْمَةٍ أَنْعَمَهَا عَلَيْهِ، وَخَاصَّةً نِعْمَةَ وُجُودِ صَدِيقٍ مُخْلِصٍ وَفِيٍّ ذَكِيٍّ، مَنَحَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْحِكْمَةَ وَنَفَاذَ الْبَصِيرَةِ، وَهُوَ صَدِيقُهُ «حَسَن» الَّذِي كَانَ دَائِمًا يُعِينُهُ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَيُوَجِّهُهُ إِلَىٰ كُلِّ مَا فِيهِ الْخَيْرُ وَالصَّلاَحُ، عِلاَوَةً عَلَىٰ خِبْرَتِهِ فِي مَجَالِ التِّجَارَةِ، وَأَيْضًا مَهَارَتِهُ فِي قِيَادَةِ السُّفُنِ فِي أَعَالِي الْبِحَارِ.

وَبَعْدَ مُرُورِ عِدَّةِ أَيَّامٍ مِنْ إِبْحَارِ السَّفِينَةِ «عُمَرُ خَان»، وَبَيْنَمَا كَانَتْ الْأُمُورُ تَسِيرُ عَلَىٰ مَا يُرَام وَأَمْوَاجُ الْبَحْرِ هَادِئَةٌ إِلَىٰ حَدٍّ مَّا، وَالْفَتَىٰ قَائِدُ السَّفِينَةِ فِي حُجْرَتِهِ الْخَاصَّة يَجْلِسُ مَعَ صَدِيقِ الْعُمْرِ «حَسَن»، وَهُمَا يُمَارِسَانِ لُعْبَةَ الشَّطَرَنْجِ، وَفِي اللَّحْظَةِ الَّتِي كَادَ «عُمَرُ» يُنْهِي دَوْرَ الشَّطَرَنْجِ لِصَالِحِهِ، وَهُوَ يَبْتَسِمُ ابْتِسَامَة النَّصْرِ قَائِلاً لَصَدِيقِهِ «حَسَن»: كِشْ مَلِك ...

فِي هٰذِهِ اللَّحْظَة تَمَامًا، صَاحَ الْبَحَّارُ الَّذِي يَقِفُ عَلَىٰ سَارِيَةِ السَّفِينَةِ وَهُوَ يُرَاقِبُ مَا حَوْلَهَا بِوَاسِطَةِ الْمِنْظَارِ الْمُقَرِّب «التِّلِيسْكُوب» قَائِلاً وَهُوَ يَصْرُخُ بِأَعْلَىٰ صَوْتِهِ مُحَذِّرًا:

– انْتِبَاه ... انْتِبَاه ... سَفِينَةُ الْقَرَاصِنَةِ تَقْتَرِبُ مِنْ سَفِينَتِنَا ... انْتِبَاه ... انْتِبَاه ... سَفِينَةُ الْقَرَاصِنَةِ تَقْتَرِبُ مِنَّا بِسُرْعَةٍ مُذْهِلَةٍ.

وَهَبَّ جَمِيعُ الْبَحَّارَةِ فِي فَزَعٍ وَهَلَعٍ مِنْ هٰذَا النِّدَاء التَّحْذِيرِي الْمَشْؤُوم، وَصَعَدُوا فِي سُرْعَةٍ وَهَرْجَلَةٍ إِلَىٰ ظَهْرِ السَّفِينَةِ، وَهُمْ يَتَوَقَّعُونَ قِتَالاً مُرَوِّعًا عَلَىٰ وَشَكِ أَنْ يَقَعَ بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقَرَاصِنَةِ.

وَفِي لَحَظَاتٍ كَانَ «عُمَرُ خَان» وَصَدِيقُ عُمُرِهِ «حَسَن» عَلَىٰ سَطْحِ السَّفِينَةِ يَنْظُرَانِ نَاحِيَةَ سَفِينَةِ الْقَرَاصِنَةِ، وَأَخْرَجَ «عُمَر» مِنْ جَيْبِ سِرْوَالِهِ مِنْظَارَهُ الْمُقَرِّبَ الْخَاصّ بِهِ، وَرَاحَ يَفْحَصُ سَفِينَةَ هٰؤُلاَءِ الْقَرَاصِنَةِ وَهِيَ مُنْدَفِعَةٌ نَاحِيَتَهُمْ فِي سُرْعَةٍ كَبِيرَةٍ، وَيُرَفْرِفُ عَلَىٰ أَعْلَىٰ سَفِينَتِهِمُ الْعَلَمُ الْمُمَيَّزُ لِلْقَرَاصِنَةِ الْمَرْسُومُ عَلَيْهِ جُمْجُمَةٌ بَشَرِيَّةٌ سَوْدَاءُ اللَّوْنِ وَهِيَ تَقَعُ بَيْنَ عَظْمَتَيْنِ، حَيْثُ يُوْحِي هٰذَا الْعَلَمُ الْبَغِيضُ لِجَمِيعِ مَنْ يَرَوْنَهُ أَنَّ الْمَوْتَ هُوَ مَصِيرُ مَنْ يَعْتَرِضُ هٰؤُلاَءِ الْقَرَاصِنَةِ الْمُجْرِمِينَ.

وَنَظَرَ «عُمَرُ خَان» إِلَىٰ صَدِيقِهِ «حَسَن» لَعَلَّهُ يُسَاعِدُهُ فِي اتِّخَاذِ الْقَرَارِ الصَّحِيحِ فِي هٰذِهِ الْمِحْنَةِ الْخَطِيرَةِ، وَجَاءَتْ نَظَرَاتُ الصَّدِيقِ تُوحِي بِأَنَّهُ لَيْسَ لَدَيْهِ الْقُدْرَةَ عَلَىٰ اتِّخَاذِ الْقَرَارِ وَالْحَالُ كَذَلِكَ.

وَبَعْدَ بُرْهَةٍ مِنَ التَّفْكِيرِ، أَمَرَ الْقُبْطَانُ «عُمَرُ خَان» كُلَّ بَحَّارَتِهِ بِالاسْتِعْدَادِ لِلْقِتَالِ، وَأَنْ يُحَاوِلَ كُلٌّ مِنْهُمْ اسْتِخْدَامَ أَيِّ شَيْءٍ يَسْتَطِيعُ بِهِ الدِّفَاعَ عَنْ نَفْسِهِ، وَعَنْ سَفِينَتِهِمْ، ثُمَّ طَلَبَ مِنْهُمُ الْهُدُوءَ وَعَدَمَ صُدُورِ أَيَّةِ حَرَكَةٍ إِلاَّ بَعْدَ أَنْ يُعْطِيَهُمُ الْإِشَارَةَ بِبَدْءِ الْقِتَالِ.

وَاقْتَرَبَتْ سِفِينَةُ الْقَرَاصِنَةِ مِنَ السَّفِينَةِ التِجَارِيَّةِ «عُمَرُ خَان»، حَتَّىٰ كَادَتْ تُلاَمِسُهَا، فَصَاحَ كَبِيرُ الْقَرَاصِنَةِ بِصَوْتٍ غَلِيظٍ أَجَشَّ مُخِيفٍ قَائِلًا:

– يَا مَنْ عَلَىٰ هٰذِهِ السَّفِينَةِ التِجَارِيَّةِ ... اسْتَسْلِمُوا تَسْلَمُوا ... أَمَّا إِذَا حَاوَلْتُمُ الْمُقَاوَمَةَ فَسَنَقْتُلُكُمْ جَمِيعًا.

وَرَدَّدَ الْقَرَاصِنَةُ بَصَوْتٍ غَوْغَائِيٍّ عِبَارَةَ زَعِيمِهِمُ الْأَخِيرَةَ:

– نَعَمْ ... سَنَقْتُلُكُمْ جَمِيعًا ... سَنَقْتُلُكُمْ جَمِيعًا ...

وَسَادَ الْهُدُوءُ بُرْهَةً أَعْلَنَ بَعْدَهَا رُبَّانُ السَّفِينَةِ التِجَارِيَّةِ بِصَوْتٍ قَوِيٍّ وَثِقَةٍ فِي النَّفْسِ:

– إِنَّنَا سَوْفَ نَسْتَسْلِمُ لَكُمْ عَلَىٰ شَرْطِ أَلاَّ تَمَسُّوا أَحَدًا مِنَّا بِسُوءٍ.

صَاحَ كَبِيرُ الْقَرَاصِنَةِ فِي غَضَبٍ:

– لَيْسَ لَكُمْ شُرُوطٌ عِنْدِي، فَأَنَا الَّذِي أُقَرِّرُ مَاذَا سَأَفْعَلُ بِكُمْ.

رَدَّ «عُمَرُ خَان» بِصَوْتٍ وَاضِحٍ لاَ تَرَدُّدَ فِيهِ:

– وَهُوَ كَذَلِكَ ... كَمَا تُرِيدُ يَا كَبِيرَ الْقَرَاصِنَةِ.

ضَحِكَ كَبِيرُ الْقَرَاصِنَةِ ضِحْكَةَ الانْتِصَارِ عَالِيَةً وَمُدَوِّيَةً، وَأَمَرَ مَجْمُوعَةً مِنَ الْقَرَاصِنَةِ يَقُودُهَا أَخوه الصَّغِيرِ بِأَنْ يَنْتَقِلُوا إِلَىٰ السَّفِينَةِ التِجَارِيَّةِ لِيُعَايِنُوا مَا فِيهَا مِنْ

بَضَائِعَ وَغَنَائِمَ، وَكَانَتْ تِلْكَ الْمَجْمُوعَةُ تَضُمُّ عَشْرَةً مِن أَشَدِّ هُؤُلاَءِ الْقَرَاصِنَةِ قُوَّةً وَبَطْشًا وَعُنْفًا عَلَىٰ رَأْسِهِمْ الْأَخُ الْأَصْغَرُ لِكَبِيرِ الْقَرَاصِنَةِ.

وَمَا أَنْ أَصْبَحَ الْقَرَاصِنَةُ الْعَشَرَةُ وَقَائِدُهُمْ عَلَىٰ ظَهْرِ السَّفِينَةِ التِجَارِيَّةِ، حَتَّىٰ أَعْطَىٰ الْفَتَىٰ الشُّجَاعُ الْأَمْرَ بِالْهُجُومِ عَلَيْهِم، فَتَمَّ الْهُجُومُ عَلَىٰ الْقَرَاصِنَةِ، وَأَوْثَقُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُم بِحَبْلٍ مَتِينٍ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ ابْتَعَدَتْ السَّفِينَةُ التِجَارِيَّةُ قَلِيلاً عَنْ سَفِينَةِ الْقَرَاصِنَةِ.

وَأَذْهَلَت الْمُفَاجَأَةُ زَعِيمَ الْقَرَاصِنَةِ وَرِجَالَهُ، وَصَاحَ «عُمَرُ خَان» فِي حَزْمٍ وَقُوَّةٍ:

- يَا كَبِيرَ الْقَرَاصِنَةِ ... أَحَدَ عَشَرَ قُرْصَانًا فِي أَيْدِينَا، فَإِنْ لَمْ تَبْتَعِدُوا عَنَّا، أَلْقَيْنَا
- بِهِمْ فِي الْبَحْرِ مُوَثَّقِين الْأَيْدِي لِيَلْقَوْا حَتْفَهُمْ عَلَىٰ الْفَوْرِ.

وَهُنَا جُنَّ جُنُونُ كَبِيرِ الْقَرَاصِنَةِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَتَوَقَّعُ هٰذَا الْمَوْقِفَ أَبَدًا، فَصَاحَ فِي غَضَبٍ:

- وَيْلَكُم أَيَّتُهَا الْفِئَةُ الضَّالَّةِ مِنْ الْبَحَّارَةِ، سَأَجْعَلُ أَسْمَاكَ الْبَحْرِ تَتَغَذَّىٰ عَلَىٰ جُثَثِكُمُ الْعَفِنَة.

ثُمَّ أَعْلَنَ لِلْقَرَاصِنَةِ: هُجُومٌ ... هُجُومٌ ... اُقْتُلُوهُمْ وَلاَ تُبْقُوا عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ.

فَصَاحَ الْقَرَاصِنَةُ صَيْحَاتٍ مُخِيفَةً: الْمَوْتُ لَهُمْ ... الْمَوْتُ لَهُمْ.

اقْتَرَبَتْ سَفِينَةُ الْقَرَاصِنَةِ مَنَ السَّفِينَةِ التِجَارِيَّةِ حَتَّى لاَمَسَتْهَا، وَأَخَذَ الْقَرَاصِنَةُ يَتَدَفَّقُونَ عَلَىٰ سَفِينَةِ «عُمَرَ خَان»، فَأَعْطَىٰ الْقَائِدُ أَوَامِرَهُ بِإِلْقَاءِ الْقَرَاصِنَةِ الْأَسْرَىٰ فِي الْبَحْرِ لِيَتَفَرَّغُوا لِلْقِتَالِ وَكَانَتْ مَعْرَكَةً مُرَوِّعَةً، وَبَذَلَ كُلُّ جَانِبٍ مِنَ الْمُقَاتِلِينَ مَجْهُودًا

هَائِلًا عَلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ.

وَلٰكِنْ كَمَا يَقُولُونَ «الْكَثْرَةُ تَغْلِبُ الشَّجَاعَةَ»، فَقَدْ كَانَ عَدَدُ الْقَرَاصِنَةِ يَفُوقُ عَدَدَ الْبَحَّارَةِ بِثَلَاثَةِ أَضْعَافٍ، عِلَاوَةً عَلَىٰ أَنَّ الْقَرَاصِنَةَ مُدَرَّبُونَ عَلَىٰ الْقِتَالِ أَكْثَرَ مِنْ بَحَّارَةِ السَّفِينَةِ التِجَارِيَّةِ.

وَانْتَهَتْ الْمَعْرَكَةُ الشَّرِسَةُ بِقَتْلِ كَافَّةِ الْبَحَّارَةِ إِلاَّ سَبْعَةً مِنْهُم وَقَعُوا فِي الْأَسْرِ، كَانَ بَيْنَهُمْ «عُمَرُ خَانِ»، وَصدِيقُ عُمْرِهِ «حَسَن»، وَكَانَتْ خَسَائِرُ الْقَرَاصِنَةِ قَتْلَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ قُرْصَانًا، بِخِلَافِ الْقَرَاصِنَةِ الْأَحَدَ عَشْرَ الَّذِينَ تَمَّ إِلْقَاؤُهُمْ فِي الْبَحْرِ فَغَرِقُوا فِي الْحَالِ.

وَوَقَفَ كَبِيرُ الْقَرَاصِنَةِ وَهُوَ فِي حَالَةِ غَضَبٍ شَدِيدٍ، لِأَنَّهُ فَقَدَ فِي هٰذِهِ الْمَعْرَكَةِ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ قُرْصَانًا، بَيْنَهُم أَخُوهُ الْأَصْغَر، الَّذِي كَانَ يُعِدُّهُ لِيَكُونَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ كَبِيرَ الْقَرَاصِنَةِ، وَأَمَرَ وَهُوَ فِي قِمَّةِ غَضَبِهِ بِأَنْ يَأْتُوا بِالْأَسْرَىٰ وَاحِدًا تِلْوَ الآخَرِ، لِيَرْكَعَ وَهُوَ مُوثَقَ الْيَدَيْنِ، فَيَأْمُرُ بِقَطْعِ عُنُقِهِ، لِيَلْقَىٰ حَتْفَهُ فِي الْحَالِ.

وَاسْتَمَرَّ هَذَا الْمَشْهَدُ الدَّامِي الرَّهِيبُ أَمَامَ قَائِدِهِمْ «عُمَر خَان» الَّذِي أَجَّلَهُ كَبِيرُ الْقَرَاصِنَةِ لِيَكُونَ آخِرَ مِنْ يُعْدَمْ، وَلَمْ يَبْقَ سِوَى «حَسَن» وَ «عُمَر خَان»، وَعِنْدَمَا أَجْبَرُوا «حَسَن» عَلَىٰ الرُّكُوعِ، وَصَدَرَ الْأَمْرُ بِقَطْعِ رَقَبَتِهِ، وَهُنَا نَظَرَ «حَسَن» نَظْرَةَ وَدَاعٍ نَاحِيَةَ صَدِيقِ عُمْرِهِ «عُمَر خَان» الَّذِي كَانَ لاَ يَتَصَوَّرُ أَنَّ هٰذِهِ اللَّحْظَةَ هِي نِهَايَةُ هٰذَا الصَّدِيق الْمُخْلِص، وَنَظَرَ إِلَيْهِ «عُمَر خان» نَظْرَةً قَالَ فِيهَا: لاَ بَأْسَ يَا صَدِيقِي الْعَزِيزِ، سَأَلْحَقُ بِكَ بَعْدَ لَحَظَاتٍ.

وَبِالْفِعْلِ تَمَّ إِعْدَامُ الْبَحَّارِ الشُّجَاعِ «حَسَن»، وَجَاءَ الدَّوْرُ عَلَىٰ «عُمَر خان»، فَأَجْبَرُوهُ عَلَىٰ الرُّكُوعِ، وَكَانَ قَمِيصُهُ قَدْ تَمَزَّقَ تَمَامًا فِي أَثْنَاءِ الْمَعْرَكَةِ الَّتِي أَبْلَىٰ فِيهَا الْفَتَىٰ الهُمَامُ بَلَاءً حَسَنًا وَبَدَا نِصْفُ جِسْمِهِ الْأَعْلَىٰ عَارِيًا تَمَامًا، مَعَ وُجُودِ بَعْضِ الْخُدُوشِ وَالْجِرَاحِ الَّتِي حَدَثَتْ فِي أَثْنَاءِ الْمَعْرَكَةِ، صَاحَ كَبِيرُ الْقَرَاصِنَةِ فِي شَمَاتَةٍ قَائِلاً:

- لَمْ يَبْقَ إِلاَّ أَنْتَ أَيُّهَا الْبَحَّار التَّعِس، كَانَ الْأَجْدَرُ بِكَ أَنْ تَسْتَسْلِمَ فَتُنْقِذَ نَفْسَكَ وَبَحَّارَتَكَ مِنَ الْمَوْتِ الْمُحَقَّقِ.

وَرَغْمَ الْإِعْيَاء الَّذِي بَدَا عَلَيْهِ، قَالَ «عُمَر خان» فِي عِزَّةٍ وَشَمَمٍ:

- نَحْنُ لاَ نَسْتَسْلِمُ لِأَعْدَائِنَا الْمُغْتَصِبِينَ أَبَدًا، بَلْ نُفَضِّلُ الْمَوْتَ أَعِزَّاءَ كُرَمَاءَ، فَنَحْنُ نُؤْمِنُ بِأَنَّنَا شُهَدَاءُ، وَسَنَذْهَبُ بَعْدَ الْمَوْتِ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَىٰ إِلَىٰ جَنَّةِ الْخُلْدِ، أَمَّا أَنْتُمْ أَيُّهَا الْقَرَاصِنَةُ الْقَتَلَةُ اللُّصُوصُ، فَسَوْفَ تَذْهَبُونَ بَعْدَ الْمَوْتِ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَىٰ إِلَىٰ الْجَحِيمِ، إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ لِتَنَالُوا جَزَاءَكُم عَمَّا فَعَلْتُمُوهُ مِن قَتْلٍ، وَسَرِقَةٍ، وَنَهْبِ أَمْوَالِ الْأَبْرِيَاءِ.

صَرَخَ كَبِيرُ الْقَرَاصِنَةِ صَرْخَةً عَالِيَةً، وَقَالَ فِي غَضَبٍ شَدِيدٍ:

- أُصْمُتْ أَيُّهَا الْبَحَّارُ اللَّعِينُ، سَتَنَالُ جَزَاءَكَ عَلَىٰ هٰذِهِ الْكَلِمَاتِ الْبَلْهَاءِ.

ثُمَّ الْتَفَتَ نَاحِيَةَ الْقُرْصَانِ الْمُكَلَّفِ بِإِعْدَامِ الْبَحَّارِ الْأَسِيرِ وَصَاحَ:

- دُقَّ عُنُقَ هٰذَا الْمُجْرِمِ الَّذِي تَسَبَّبَ فِي مَوْتِ أَخِي وَرِفَاقِهِ.

فَدَفَعَ الْقُرْصَانُ الْفَتَىٰ «عُمَر خان» دَفْعَةً قَوِيَّةً أَسْقَطَتْهُ عَلَىٰ الْأَرْضِ، فَأَخَذَ يُتَمْتِمُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ، وَهُوَ يَنْتَظِرُ الْمَوْتَ فِي اللَّحْظَةِ التَّالِيَةِ هَامِسًا:

- أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُول الله ...

وَمَرَّتْ فِي خَيَالَاتِهِ صُورَةُ أَبِيهِ، وَصُورَة أُمِّهِ، وَمَا سَوْفَ يَعْتَرِيهُمَا مِنْ حُزْنٍ عَلَىٰ فُقْدَانِهِ، كَمَا مَرَّتْ فِي شَرِيطِ ذِكْرَيَاتِهِ مَوَاقِفُ أَسَاسِيَّةٌ فِي حَيَاتِهِ، وَأُسْرَتِهِ وَجِيْرَانِهِ، وَأَصْدِقَائِهِ وَخَاصَةً صَدِيقُ عُمُرِه «حَسَن» الَّذِي فَارَقَهُ مُنْذُ لَحَظَاتٍ قَلِيْلَةٍ.

وَفِي اللَّحْظَةِ نَفْسِهَا الَّتِي رَفَعَ الْقُرْصَانُ سَيْفَهُ لِيَهْوِي بِهِ عَلَىٰ عُنُقِ «عُمَر خان» شَاهَدَ كَبِيرُ الْقَرَاصِنَةِ الشَّامَةَ الَّتِي عَلَىٰ الْكَتِفِ الْأَيْمَنِ لِلْبَحَّارِ الشُّجَاعِ، تِلْكَ الشَّامَةُ الْحَمْرَاءُ الَّتِي تُشْبِهُ قَلْبًا صَغِيرًا يَقَعُ بَيْنَ سَيْفَيْنِ.

فَصَرَخَ كَبِيرُ الْقَرَاصِنَةِ صَرْخَةً عَالِيَةً مُدَوِّيَةً فِي الْقُرْصَانِ الَّذِي سَيُنَفِّذُ حُكْمَ الْإِعْدَامِ قَائِلًا:

- انْتَظِر ... انْتَظِر ... لَا تَدُقَّ عُنُقَه ...

وَتَعَجَّبَ الْقُرْصَانُ الْمُوَكَّلُ بِقَتْلِ الشَّابِّ «عُمَر خان»، وَأَنْزَلَ سَيْفَهُ إِلَىٰ جَانِبِهِ، كَمَا تَعَجَّبَ بَاقِي الْقَرَاصِنَة.

وَمَرَّ شِرِيطُ الذِّكْرَيَاتِ أَمَامَ عَيْنَيْ كَبِيرِ الْقَرَاصِنَةِ، فَتَذَكَّرَ تِلْكَ الْأَحْلَامَ الْمُزْعِجَةَ الْمُتَكَرِّرَةَ الَّتِي كَانَ يُشَاهِدُهَا فِي مَنَامِهِ، وَذَلِكَ الصَّوْتُ الْمُمَيَّزُ الْمُفْزِعُ لامْرَأَةٍ عَجُوزٍ وَهِيَ تُحَذِّرُهُ بِشِدَّةٍ قَائِلَةً:

- إِيَّاكَ وَقَتْلَ صَاحِبِ الشَّامَةِ الْحَمْرَاءِ الَّتِي عَلَىٰ كَتِفِهِ الْأَيْمَنِ، إِيَّاكَ فَإِنَّ الْهَلاَكَ وَالْفَنَاءَ مَصِيرُكَ، إِنَّ قَتْلَ صَاحِبِ الشَّامَةِ الْحَمْرَاءِ مُحَرَّمٌ عَلَيْكَ، فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّ الْأَفَاعِي الْكُبْرَىٰ سَتَعْصِرُكَ عَصْرًا، وَالْوُحُوشُ الضَّارِيَةُ سَتُمَزِّقُكَ إِرَبًا إِرَبًا، وَسَتَنْقَضُّ عَلَيْكَ النُّسُورُ وَالصُّقُورُ وَالْخَفَافِيشُ لِتَنْهَشَ بَدَنَكَ نَهْشًا.

فَيَقُومُ مِنْ هُذِهِ الْكَوَابِيسِ مَذْعُورًا مَهْمُومًا وَيَسْأَلُ نَفْسَهُ: مَنْ هُوَ صَاحِبُ الشَّامَةِ هُذِهِ؟ مَنْ هُذَا الَّذِي تُحَذِّرُنِي الْأَقْدَارُ مِنْ قَتْلِهِ؟ أَسْئِلَةٌ لَمْ يَعْرِفْ كَبِيرُ الْقَرَاصِنَةِ الْإِجَابَةَ عَنْهَا إِلَّا الْآنَ، أَخِيرًا عَرَفَ الْإِجَابَةَ عَنْ تِلْكَ الْأَسْئِلَةِ الْمُحَيِّرَة.

وَدُهِشَ الْقَرَاصِنَةُ مَنْ مَوْقِفِ كَبِيرِهِم إِزَاءَ هُذَا الْبَحَّار الْأَسِير، لَقَدْ تَمَّ الْقَضَاءُ عَلَىٰ كَافَّةِ الْبَحَّارَةِ، وَتَمَّ الْاسْتِيلاَءُ عَلَىٰ كُلِّ بَضَائِعِ السَّفِينَةِ التِّجَارِيَّةِ الْمَنْكُوبَة، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا التَّخَلُّصَ مِنْ هُذَا الشَّاب التَّعِس، الَّذِي أَوْقَفَ كَبِيرُهُم الْأَمْرَ بِقَتْلِهِ.

صَاحَ كَبِيرُ الْقَرَاصِنَةِ بَعْدَ لَحَظَاتٍ مِنَ التَّفْكِير:

- هَيَّا انْقُلُوا بِضَاعَة هُذِه السَّفِينَةِ إِلَىٰ سَفِينَتِنَا، ثُمَّ قُومُوا بِحَرْقِهَا، أَمَّا هُذَا الْبَحَّارُ اللَّعِينُ فَلاَ تَمَسُّوهُ بِأَذًى، وَيَتِمُّ بَيْعُهُ فِي سُوقِ الْعَبِيدِ عِنْدَمَا نَصِلُ إِلَىٰ جَزِيرَةِ «طَالُوس».

وَبَدَأَ الْقَرَاصِنَةُ تَنْفِيذَ أَوَامِرَ كَبِيرِهِم، فَنَقَلُوا الْبَضَائِعَ الْمَنْهُوبَةِ إِلَىٰ سَفِينَتِهِمْ، كَمَا نَقَلُوا الْأَسِيرَ مَعَ الْبَضَائِع، وَالشَّاب لا يُصَدِّقُ نَفْسَهُ أَنَّهُ قَدْ نَجَى مِنْ مَوْتٍ مُحَقَّقٍ، وَلاَ

يَعْرِفُ لِمَاذَا لَمْ يَقْتُلْهُ الْقَرَاصِنَة؟ لَقَدْ كَانَ يَتَمَنَّى أَنْ يَلْحَقَ بِأَصْحَابِهِ الْبَحَّارَة، وَخَاصَّةً صَدِيقَ عُمُرِهِ «حَسَن»، وَلَكِن الْقَدَرَ كَانَ لَهُ رَأْيٌ مُخَالِفٌ، وَفَرَّتْ بَعْضُ الدُّمُوعِ مِنْ عَيْنَيِّ الشَّاب وَهُوَ يُشَاهِدُ سَفِينَتَهُ التِّجَارِيَّة وَهِيَ تَحْتَرِقُ وَتَسْقُطُ شَيْئًا فَشَيْئًا فِي الْبَحْرِ.

وَتَمَّ تَكْبِيلُ يَدَي وَرِجْلَيْ «عُمَر خان» بِالسَّلاَسِلِ الْحَدِيدِيَّة، وَعُومِلَ بِقَسْوَةٍ شَدِيدَةٍ مِنَ الْقَرَاصِنَة وَاْقتَرَبَ مِنْهُ أَحَدُ الْقَرَاصِنَةِ الْغِلاَظِ وَسَبَّهُ بِأَقْبَحِ السِّبَابِ، ثُمَّ صَاحَ فِيهِ قَائِلًا:

– أَيُّهَا الْأَسِيرُ اللَّعِينُ لَقَدْ كُنْتَ السَّبَبَ فِي قَتْلِ أَعَزِّ أَصْحَابِي.

ثُمَّ وَجَّهَ إِلَيْهِ لَكْمَةً قَوِيَّةً مِنْ قَبْضَةِ يَدِهِ الضَّخْمَة، فَفَقَدَ الْفَتَىٰ الْأَسِيرُ وَعْيَهُ عَلَىٰ الْفَوْرِ، وَسَقَطَ عَلَى أَرْضِيَّةِ سَفِينَةِ الْقَرَاصِنَةِ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ.

قَالَ أَحَدُ الْقَرَاصِنَةِ وَهُوَ يَلُومُ صَاحِبَهُ عَلَىٰ مَا فَعَلَ:

– لَوْ عَلِمَ كَبِيرُنَا بِمَا فَعَلْتَ، فَسَوْفَ يُعَاقِبُكَ عِقَابًا شَدِيدًا.

وَلَمْ يُعَقِّبِ الْقُرْصَانُ عَلَىٰ تَحْذِيرِ زَمِيلِهِ، وَلَكِنَّهُ رَكَلَ «عُمَر خان» الْغَائِبُ عَنِ الْوَعْيِ بِرِجْلِهِ قَائِلًا قَبْلَ أَنْ يُغَادِرَ الْمَكَانَ:

– فَلْيَذْهَب هَذَا اللَّعِينُ إِلَىٰ الْجَحِيم، خُذْهُ إِلَىٰ سُوقِ الْعَبِيد فِي جَزِيْرَةِ «طَالُوس».

الفَصْلُ الثَّالِث

جَزِيرَةُ طَالُوسِ وَقَصْرُ الْأَمِير «مِحْرَاز»

لَمْ يَدْرِ الْأَسِيرُ الْمُكَبَّلُ بِالسَّلاَسِلِ الْحَدِيدِيَّة كَمْ مِنَ الْوَقْتِ وَهُوَ فِي غَيْبُوبَتِهِ، وَكُلُّ مَا يَتَذَكَّرُهُ أَنَّهُ فِي أَثْنَاءِ اسْتِرْدَادِهِ لِوَعْيِهِ بَيْنَ الْحِينِ وَالْآخَرِ، كَانَ أَحَدُ الْقَرَاصِنَةِ الْمُكَلَّفِ بِحِرَاسَتِهِ يُقَدِّمُ لَهُ وِعَاءً بِهِ مَاءً، وَآخَرُ بِهِ حَبَّاتُ تَمْرٍ قَدِيمٍ بِهِ آثَارٌ مِنْ عُفُونَةٍ، فَكَانَ يَشْرَبُ قَلِيلًا مِنَ الْمَاءِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَبْتَلِعَ تَمْرَةً وَاحِدَةً بِسَبَبِ طَعْمِها غَيْرَ الْمَقْبُولِ.

وَضَاقَت الدُّنْيَا عَلَىٰ «عُمَر خان» فِي هٰذَا الْأَسْرِ الْبَغِيضِ، وَلَمْ يَكُنْ يُهَوِّنُ عَلَيْهِ فِي ذِلَّةِ الْأَسْرِ هٰذِهِ، سِوَىٰ بَعْضِ الْأَحْلاَمِ الَّتِي يَرَاهَا فِي مَنَامِهِ، حَيْثُ يُشَاهِدُ فِيهَا تَارَةً أُمَّهُ وَأَبَاهُ وَهُمَا يَبْتَسِمَانِ لَهُ، وَتَارَةً أُخْرَىٰ يُشَاهِدُ نَفْسَهُ وَهُوَ يَعْتَلِي مَكَانَ الْقِيَادَةِ فِي سَفِينَتِهِ التِّجَارِيَّة، وَبِجِوَارِهِ صَدِيقُ عُمُرِهِ «حَسَن»، وَمِن حَوْلِهِمَا بَحَّارَتُهُ الْأَوْفِيَاء وَهُمْ يُمَازِحُونَهُ وَيُسَامِرُونَهُ.

وَمَضَتْ عِدَّةُ أَيَّامٍ، وَالْحَالُ هُوَ الْحَالُ، وَسَفِينَةُ الْقَرَاصِنَةِ تَشُقُّ طَرِيقَهَا بَيْنَ أَمْوَاجِ الْبَحْرِ نَحْوَ جَزِيرَةِ طَالُوسِ.

وَفِي صَبَاحِ أَحَدِ الْأَيَّامِ أَفَاقَ «عُمَر خان» مِنْ نَوْمِهِ عَلَىٰ صِيَاحِ أَحَدِ الْقَرَاصِنَةِ وَهُوَ يَقِفُ عَلَىٰ أَعْلَىٰ سَارِيَةِ السَّفِينَةِ قَائِلاً:

- ظَهَرَتْ جَزِيرَةُ طَالُوس ... ظَهَرَتْ جَزِيرَةُ طَالُوس ... لَقَد اقْتَرَبْنَا مِنَ الْبَرِّ ...

وَبِالْفِعْل بَدَتْ أَرْضُ الْجَزِيرَةِ عَنْ بُعْدٍ، وَمَعَ مُرُورِ الْوَقْتِ وَاقْتِرَابِ أَرْضِ الْجَزِيرَة، اسْتَعَدَّ الْقَرَاصِنَةُ لِلنُّزُولِ مِنْ سَفِينَتِهِمْ إِلَىٰ الْقَوَارِبِ الَّتِي يَسْتَخْدِمُونَهَا لِلْوُصُولِ إِلَىٰ شَطِّ الْجَزِيرَةِ، وَأَنْزَلُوا مَعَهُمْ صَنَادِيقَ الْبَضَائِعِ الَّتِي تَمَّ الاسْتِيلاَءُ عَلَيْهَا مِنَ السَّفِينَة التِّجَارِيَّةِ الَّتِي غَرِقَتْ فِي الْبَحْرِ بَعْدَ إِحْرَاقِهَا.

وَصَرَخَ أَحَدُهُمْ فِي الْفَتَىٰ الْأَسِير، بَعْدَ أَنْ فَكَّ قُيُودَهُ مِنَ السَّلاَسِلِ الْحَدِيدِيَّة قَائِلاً:

- انْهَضْ أَيُّهَا الْفَتَىٰ التَّعِسْ، لَقَدْ وَصَلْنَا إِلَىٰ جَزِيرَةِ طَالُوس، وَفِيهَا سَيَتِمُّ بَيْعُكَ فِي سُوقِ الْعَبِيد وَنَتَخَلَّصُ مِنْكَ نِهَائِيًا.

وَلَكِنَّ «عُمَر خان» كَانَ وَاهِنًا ضَعِيفًا، لَمْ يَذُقْ الطَّعَامَ مُنْذُ عِدَّةِ أَيَّامٍ، فَمَا أَنْ وَقَفَ عَلَىٰ سَاقَيْهِ الْمُتَخَاذِلَتَيْنِ، حَتَّىٰ سَقَطَ عَلَىٰ الْأَرْضِ مَرَّةً أُخْرَىٰ، قَالَ لَهُ الْقُرْصَان:

– تَمَاسَكْ أَيُّهَا التَّعِسُ، هَيَّا تَنَاوَلْ كِسْرَةَ الْخُبْزِ هٰذِهِ، وَكَذَلِكَ شَرْبَةَ الْمَاءِ تِلْكَ، حَتَّىٰ تَسْتَطِيعَ أَنْ تَقِفَ عَلَىٰ رِجْلَيْكَ، وَتَقْدِرَ عَلَىٰ الْحَرَكَةِ.

وَبِالْفِعْلِ أَكَلَ «عُمَر خان» كِسْرَةَ الْخُبْزِ، وَشَرِبَ شَرْبَةَ الْـمَاءِ، فَدَبَّت فِيهِ الْحَيَاةُ،

وَاسْتَعَانَ باللهِ الْعَلِيِّ الْقَدِيرِ وَدَعَاهُ أَنْ يَمْنَحَهُ الْقُوَّةَ وَالْقُدْرَةَ عَلَىٰ الْحَرَكَةِ، فَقَامَ الْفَتَىٰ مِنْ رَقْدَتِهِ، وَاسْتَطَاعَ السَّيْرَ مَعَ حَارِسِهِ رَغْمَ شُعُورِهِ بِدُوَارٍ شَدِيدٍ، وَنَزَلَ مِنَ السَّفِينَةِ إِلَىٰ أَحَدِ الْقَوَارِبِ، الَّذِي اتَّجَهَ بِهِ نَاحِيَةَ شَطِّ الْجَزِيْرَةِ.

وَحَمَلَ الْقَرَاصِنَةُ صَنَادِيقَ الْبَضَائِعِ مِنَ الْقَوَارِبِ حَتَّىٰ سُوقِ الْجَزِيْرَةِ، وَهُنَاكَ شَاهَدَ «عُمَرُ خَان» جُمُوعًا غَفِيرَةً مِنَ الْبَشَرِ، بَعْضُهُم تُجَّارٌ يَعْرِضُونَ سِلَعَهُمْ مِنْ أَقْمِشَةٍ وَمَلاَبِسَ، وَفَوَاكِهَ وَحَلْوَىٰ وَتَوابِلَ، وَأَنْوَاعٍ مِنَ الْعَطَارَةِ، وَالْبَعْضُ الْآخَرُ مِنَ الْبَشَرِ يَقِفُونَ يُعَايِنُونَ الْبِضَاعَةَ، ثُمَّ تَبْدَأُ الْمُسَاوَمَةُ عَلَىٰ السِّعْرِ مَا بَيْنَ الْبَائِعِ وَالْمُشْتَرِي.

وَلَمَحَ الْفَتَى عَن بُعْدٍ مَكَانًا فِي هَذَا السُّوقِ يَبِيعُونَ فِيهِ وَيَشْتَرُونَ الْجَوَارِي مِنَ الْفَتَيَاتِ، وَالْعَبِيدِ مِنَ الْفِتْيَةِ وَالشَّبَابِ، فَعَرَفَ أَنَّ مَصِيرَهُ سَيَكُونُ فِي سُوقِ الْعَبِيدِ هٰذَا، وَتَمْتَمَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ قَائِلاً:

- سُوقُ الْعَبِيدِ أَرْحَمُ مِنَ سَفِيْنَةِ الْقَرَاصِنَةِ ... الْحَمْدُ للهِ ...

وَتَحَرَّكَ الْقُرْصَانُ الْمُكَلَّفُ بِبَيْعِ الْأَسِيرِ، وَتَحَرَّكَ «عُمَرُ خَان» نَاحِيَةَ سُوقِ الْعَبِيدِ، وَهُنَاكَ أَقْبَلَ بَعْضُ التُّجَارِ وَعَامَّةُ النَّاسِ لِيُعَايِنُوا السِّلَعَ مِنَ الْجَوَارِي وَالْفِتْيَةِ، وَبِالْفِعْلِ تَمَّ بَيْعُ مُعْظَمِ السِّلَعِ لِجَوْدَتِهَا، وَقِلَّةِ أَسْعَارِهَا، وَلَمْ تُشَجِّعْ الْحَالَةُ الْبَدَنِيَّةُ الْهَزِيْلَةِ الَّتِي بَدَا عَلَيْهَا «عُمَرُ خَان» أَنْ يَتَقَدَّمَ وَيَشْتَرِيهِ أَحَدٌ، وَأَعْرَضَ الْجَمِيعُ عَنِ الاهْتِمَامِ بِشِرَائِهِ رَغْمَ قِلَّةِ السِّعْرِ الْمَعْرُوضِ فِيهِ، وَكَادَ الْقُرْصَانُ أَنْ يَتْرُكَهُ فِي سُوقِ الْعَبِيدِ بِلاَ ثَمَنٍ، لَوْلاَ أَنْ أَقْبَلَ عَلَىٰ سُوقِ الْعَبِيدِ أَحَدُ الْمَسْؤولِينَ عَنْ قَصْرِ الْأَمِيرِ «مِحْرَاز» وَمَعَهُ تَابِعُهُ، فَنَظَرَ هٰذَا الْمَسْؤولُ إِلَىٰ الْفَتَىٰ الْهَزِيلِ الضَّعِيفِ، وَكَادَ أَنْ يَصْرِفَ النَّظَرَ عَنْهُ، لَوْلاَ أَنَّهُ لاَحَظَ أَنَّ مَلاَمِحَهُ تَدُلُّ عَلَىٰ نُبْلِ مَكَانَتِهِ، وَعَرَاقَةِ أَصْلِهِ، فَقَبِلَ أَنْ يَشْتَرِيهِ، وَأَعْطَىٰ الْقُرْصَانَ مَبْلَغًا مِنَ

الْـمَالِ لَمْ يَكُنْ يَتَوَقَّعُهُ أَبَدًا، وَأَسْرَعَ الْقُرْصَانُ بِهٰذا الْمَبْلَغ نَاحِيَة أَصْحَابِهِ الْقَرَاصِنَة، وَهُوَ يُعَبِّرُ عَنْ سَعَادَتِهِ بِهَذِهِ الصَّفْقَة، أَمَّا مَسْؤولُ الْقَصْرِ فَقَدْ أَمَرَ تَابِعَهُ بِإِحْضَارِ عَرَبَةٍ يَجُرُّهَا حُصَانٌ لِتَحْمِلَهُم وَمَعَهُم هٰذَا الْعَبْد الْهَزِيل إِلَىٰ قَصْرِ الْأَمِيرِ «مِحْرَاز».

وَدَخَلَ «عُمَرُ خان» قَصْرَ «الْأَمِيرِ مِحْرَاز»، فَوَجَدَهُ قَصْرًا فَسِيحَ الْجَوَانِب، لَهُ أَسْوَارٌ عَالِيَةٌ بِهِ الْعَدِيدُ مِنَ الْمَبَانِي الْفَاخِرَةِ، حَوْلَهَا أَشْجَارٌ عَالِيَةٌ، تَحْتَهَا حَدَائِقُ مُزْهِرَةٌ، تَجْرِي بَيْنَهَا جَدَاوِلُ الْـمَاءِ الرَّقْرَاقَةِ، وَأَشْجَار الْفَوَاكِهِ الْمُثْمِرَةِ، الَّتِي، لاَ يَسْتَطِيعُ فَرْدٌ أَنْ يَحْصُرَهَا نَوْعًا، أَوْ عَدَدًا.

وَاتَّجَهَتْ الْعَرَبَةُ الَّتِي يَجُرُّهَا الْحِصَانُ وَهِيَ تَحْمِلُ «عُمَرُ خَان» إِلَىٰ مَبْنَىٰ خَلْفِيٍّ، وَهَذَا الْمَبْنَىٰ خَاصٌّ بِإِقَامَةِ عَبِيدِ الْقَصْرِ، حَيْثُ تَمَّ إِعْطَاءُ الْأَوَامِرِ لِلْعَبْدِ الْقَدِيم «فَيْرُوز» كَيْ يَهْتَمَّ بِهَذَا الْعَبْد الْجَدِيدِ، وَالْعَمَلِ عَلَىٰ نَظَافَةِ بَدَنِهِ بِالاسْتِحْمَامِ، وَصَرْفِ مَلاَبِسَ جَدِيدةٍ لَهُ، وَتَقْدِيمِ الْوَجَبَاتِ الْغِذَائِيَّةِ الْمُنَاسِبَةِ، وَمُدَاوَاةِ جُرُوحِهِ.

وَبِمُرُورِ الْأَيَّامِ اسْتَرَدَّ الشَّابُّ «عُمَرُ خَان» صِحَّتَهُ، وَعَادَتْ إِلَيْهِ قُوَّتُهُ، وَتَجَدَّدَتْ هَيْئَتُهُ، وَأَصْبَحَ مَنْ يَرَاهُ لاَ يَعْتَقِدُ أَبَدًا أَنَّهُ عَبْدٌ، بَلْ يَظُنُّ أَنَّهُ أَمِيرٌ مِنْ أُمَرَاءِ الْقَصْرِ.

وَصَارَتْ صَدَاقَةٌ وَثِيقَةٌ تَرْبِطُهُ بِكَبِيرِ الْعَبِيدِ «فَيْرُوز»، الَّذِي أُعْجِبَ كَثِيرًا بِصَدِيقِهِ الْجَدِيدِ «عُمَر» وَأَحَبَّهُ، فَأَحَبَّهُ الشَّابُّ، وَوَضَعَ فِيهِ ثِقَتَهُ، وَكَأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قَدْ عَوَّضَهُ بِـ «فَيْرُوز» عَنْ صَدِيقِ عُمُرِهِ «حَسَن».

وَذَاتَ يَوْمٍ، وَفِي إِحْدَىٰ جَلَسَاتِ السَّمَرِ، سَأَلَ «عُمَرُ خَان» صَدِيقَهُ «فَيْرُوز» قَائِلاً:

- فَيْرُوز ... مَنْ هُوَ الْأَمِيرُ «مِحْرَاز» صَاحِبُ هٰذَا الْقَصْرِ الْفَسِيحِ؟

رَدَّ فِيرُوز عَلَىٰ صَدِيقِهِ عُمَر قَائِلاً:

- الْأَمِيرُ «مِحْرَاز» يَا صَدِيقِي عُمَر، هَوَ أَحَدُ أَحْفَادِ الْأَمِير «طَالُوس» صَاحِبِ هٰذِهِ الْجَزِيرَة مُنْذُ سَنَواتٍ بَعِيدَةٍ جِدًا.

- وَهَلْ لِلْأَمِير «مِحْرَاز» أُخْوَةٌ يَا فَيْرُوز؟

- نَعَمْ يَا صَدِيقِي عُمَر، لَهُ مِنَ الْأُخْوَةِ سَبْعَةٌ، وَكُلُّ وَاحِدٍ لَهُ قَصْرٌ خَاصٌّ بِهِ عَلَىٰ هٰذِهِ الْجَزِيرَةِ، وَالْأَمِيرُ «مِحْرَاز» هُوَ الْأَخُ الْأَكْبَرُ لَهُم، فَهُوَ الْآمِرُ النَّاهِي فِي كُلِّ شُؤونِ قَصْرِهِ، وَقُصُورِ أُخْوَتِهِ السَّبْعَة، وَهُوَ وَاضِعُ الْقَوَانِينِ الَّتِي يَتَعَامَلُ بِهَا أَهْلُ الْجَزِيرَةِ دَاخِلَ الْقُصُورِ وَخَارِجِهَا.

– فَيْرُوز ... عَلَىٰ فَرْضِ أَنَّ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ لَمْ يَلْتَزِمْ بِقَانُونٍ مِنْ تِلْكَ الْقَوَانِين، فَمَاذَا يَحْدُثُ لَهُ؟

تَجَهَّمَ وَجْهُ «فَيْرُوز» مِنْ هٰذَا السُّؤَال، وَقَالَ فِي شَيءٍ مِنَ الصَّرَامَةِ وَالْجِدِّيَّةِ:

– يُنَفَّذُ فِيهِ حُكْمُ الْإِعْدَامِ فَوْرًا بِقَطْعِ رَقَبَتِهِ بِالسَّيْفِ عَلَىٰ الْمَلَأِ.

فَارْتَعَدَ عُمَرُ مِنْ إِجَابَةِ «فَيْرُوز» الْمُخِيفَةِ، وَفِي مُحَاوَلَةٍ لِتَغْيِيرِ مَوْضُوعِ الْحَدِيثِ قَالَ:

– وَهَلْ هُوَ مُتَزَوِّجٌ يَا فَيْرُوز؟

ابْتَسَمَ «فَيْرُوز» عِنْدَمَا لَاحَظَ عَلَامَات الْخَوْفِ عَلَىٰ وَجْهِ عُمَر، وقال:

– نَعَمْ يَا صَدِيقِي ... مُتَزَوِّجٌ مِنَ الْأَمِيرَةِ «مَايَا» وَهِيَ جَمِيلَةُ الْجَمِيلَاتِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ فِي مَبْنَى حَرِيمِ الْقَصْرِ، تُوجَدُ لِلْأَمِيرِ مِحْرَاز بَعْضُ الْفَتَيَاتِ الْجَمِيلَات، وَهُنَّ الْمَحْظِيَّاتِ مِمَّنْ يُعْجَبُ بِجَمَالِهِنَّ، يَخْتَارُ مِنْهُنَّ مَا يَشَاءُ.

– وَمَاذَا عَنْ مَبْنَىٰ حَرِيمِ الْقَصْرِ يَا فَيْرُوز؟

- مَبْنَىٰ حَرِيمِ الْقَصْرِ يَا عُمَر مَمْنُوعٌ لِأَحَدٍ مِنَ الرِّجَالِ أَنْ يَقْتَرِبَ مِنْهُ بَتَاتًا، أَسْيَادًا كَانُوا أَمْ عَبِيدًا وَيَضُمُّ هٰذَا الْمَبْنَىٰ كُلاًّ مِن: الْمُشْرِفَات عَلَىٰ الْقَصْرِ، ومَحْظِيَّاتِ الْأَمِيرِ مِحْرَاز، وَالْمُغَنِّيَات وَالرَّاقِصَات، وَعَازِفَات الْمُوسِيقَىٰ فِي الْحَفَلاَتِ الْمُخْتَلِفَةِ.

وَسَأَل «عُمَرُ خَان» صَدِيقَه «فَيْرُوز» وَهُوَ يَبْتَسِمُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْمَكْرِ:

- أَلاَ تَعْرِفُ إِحْدَاهُنَّ يَا فَيْرُوز؟

ضَحِكَ فَيْرُوز ضِحْكَةً أَظْهَرَتْ أَسْنَانَهُ الْبَيْضَاء الَّتِي أَضَاءَتْ وَجْهَهُ الْأَسْمَرَ وَقَالَ بِصَوْتٍ خَافِضٍ:

- نَعَمْ يَا صَدِيقِي نَعَم ... فَإِنَّ لِي فَتَاةً أُحِبُّهَا، وَهِيَ أَيْضًا تُحِبُّنِي، تُدْعَىٰ «بَنْدَرَة» وَأَلْتَقِي بِهَا سِرًّا فِي الْمُنَاسَبَاتِ السَّارَّةِ، مِثْل عِيدِ مِيلاَدِ الْأَمِيرِ «مِحْرَاز»، أَوْ عِيدِ زَوَاجِ الْأَمِيرِ وَالْأَمِيرَةِ «مَايَا»، أَوْ فِي احْتِفَالاَتِ عِيدِ الزُّهُورِ، أَوْ عِيدِ تَنْصِيبِ الْأَمِيرِ خَالِدِ الذِّكْرِ «طَالُوس» عَلَىٰ هٰذِهِ الْجَزِيرَةِ، فَفِي هٰذِهِ الْأَعْيَاد وَالْمُنَاسَبَاتِ يَكُون الْكُلُّ سَعِيدًا وَمَسْرُورًا، وَمَشْغُولًا بِالاحْتِفَالِ، فَنَجِدُهَا فُرْصَةً أَنَا وَ «بَنْدَرَة» كَيْ نَلْتَقِيَ سَوِيًّا فِي مَكَانٍ خَفِيٍّ، وَنَسْعَدَ مَعًا بِهَذا اللِّقَاء.

الفَصْلُ الرَّابِعُ

جِي جِي بَاوْ

حَتَّىٰ هٰذِهِ اللَّحْظَةِ لَمْ يَلْتَقِ «عُمَرُ خَان» وَالْأَمِيرُ «مِحْرَاز» وَجْهًا لِوَجْهٍ، وَلٰكِنَّهُ كَانَ يَقُومُ مَعَ نَفَرٍ مِنَ الْعَبِيدِ بِبَعْضِ الْخَدَمَاتِ الَّتِي يَحْتَاجُهَا أَهْلُ الْقَصْرِ، مِثْلَ حَمْلِ بَعْضِ الْأَطْعِمَةِ وَالْفَوَاكِهِ أَوْ حَمْلِ أَوْعِيَةِ الْمَاءِ إِلَىٰ دَاخِلِ الْقَصْرِ، أَو التَّخَلُّصِ مِنْ بَعْضِ الْمُهْمَلَاتِ إِلَىٰ خَارِجِ الْقَصْرِ.

وَعِنْدَمَا أُعْلِنَ عَنْ عَزْمِ الْأَمِيرِ «مِحْرَاز» الْخُرُوجَ فِي رِحْلَةِ صَيْدِ الْغِزْلَانِ فِي الْغَابَةِ الَّتِي تُوجَد عَلَىٰ أَطْرَافِ الْجَزِيرَةِ، تَمَّ اخْتِيَارُ «عُمَرُ خَان» مِنْ بَيْنِ الْعَبِيدِ الَّذِينَ سَيُرَافِقُونَ الْأَمِيرَ وَصَحْبَهُ فِي رِحْلَةِ الصَّيْدِ هٰذِهِ.

وَجَاءَ صَبَاحُ يَوْمِ رِحْلَةِ الصَّيْدِ، وَاسْتَقَلَّ الْأَمِير «مِحْرَاز» وَبَعْضُ الْأُمَرَاءِ خُيُولَهُ، وَمِنْ حَوْلِهِم تَجْرِي مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْعَبِيدِ لِتَلْبِيَةِ أَيَّةِ أَوَامِرَ تَصْدُرُ مِنْ سَادَتِهِم، وَخَرَجَ هٰذَا الْـمَوْكِبُ الْأَمِيريّ مِنْ بَوَّابَةِ الْقَصْرِ فِي اتِّجَاهِهِ نَحْوَ غَابَةِ الْجَزِيرَةِ.

وَمَعَ وُصُولِ الرَّكْبِ إِلَىٰ بِدَايَةِ أَشْجَارِ الْغَابَةِ، بَدَأَتْ مُطَارَدَةُ الْغِزْلَان مِنْ قِبَلِ الْأَمِيرِ مِحْرَاز، وَالْأُمَرَاءُ مِنْ حَوْلِهِ، وَالْعَبِيدُ يُسْرِعُونَ فِي الْعَدْوِ خَلْفَهُمْ، وَمِنْ بَيْنِهِمْ «عُمَرُ خَان»، لِعَمَلِ اللَّازِمِ فِي أَثْنَاءِ عَمَلِيَّةِ الصَّيْدِ.

وَبِمُرُورِ الْوَقْتِ، وَانْقِضَاءِ السَّاعَاتِ الطَّوِيلَةِ، تَمَّ اصْطِيَادُ بَعْضِ الْغِزْلَانِ مِنْ قِبَلِ الْأَمِيرِ «مِحْرَاز» وَالْأُمَرَاءِ الَّذِينَ كَانُوا فِي صُحْبَتِهِ، وَالْجَمِيعُ يُصِيحُونَ وَيَضْحَكُونَ

فِي سَعَادَةٍ وَنَشْوَةٍ خَاصَّةً عِنْدَ اصْطِيَادِ غَزَالَةٍ عَنِيدَةٍ، أَوْ عِنْدَ فِرَارِ أُخْرَىٰ سَالِمَةٍ بَعْدَ أَنْ أَجْهَدَتْ صَائِدَهَا وَأَعْجَزَتْهُ.

وَظَهَرَ الإِجْهَادُ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَمِيرِ «مِحْرَاز» مِنَ الْكَرِّ وَالْفَرِّ بَحِصَانِهِ خَلْفَ غِزْلاَنِ الْغَابَةِ، فَتَرَجَّلَ مِنْ عَلَىٰ حِصَانِهِ، وَجَلَسَ فِي ظِلاَلِ الْأَشْجَارِ الضَّخْمَةِ لِيَسْتَرِيحَ قَلِيلاً، وَأَمَرَ بِإِحْضَارِ بَعْضِ الـمَاءِ لِيَرْوِيَ بِهِ عَطَشَهُ، فَأَحْضَرَ أَحَدُ الْعَبِيدِ إِنَاءَ الـمَاءِ وَأَعْطَاهُ لِلْأَمِيرِ الَّذِي شَرِبَ مِنْهُ حَتَّىٰ ارْتَوَىٰ.

وَمَا هِيَ سِوَىٰ لَحْظَةٍ حَتَّىٰ صَاحَ الْعَبْدُ «عُمَر خَان» قَائِلاً:

- سَيِّدِي الْأَمِير ... لاَ تَأْتِ بِأَيَّةِ حَرَكَةٍ ...

وَنَظَرَ الْأَمِيرُ «مِحْرَاز» لِهٰذَا الْعَبْدِ الَّذِي لَمْ يَرَهُ قَطُّ قَبْلَ الْآنَ نَظْرَةَ اسْتِنْكَارٍ، فَكَيْفَ يَجْرُؤُ أَنْ يُصْدِرَ لَهُ هٰذَا الْأَمْرَ، وَلَكِنَّهُ انْصَاعَ لِلْأَمْرِ، وَبِالْفِعْلِ لَمْ يَأْتِ بِأَيَّةِ حَرَكَةٍ. وَبِسُرْعَةٍ وَبِمَهَارَةٍ فَائِقَةٍ أَمْسَكَ «عُمَرُ خَان» فَرْعَ شَجَرَةٍ جَافٍّ وَانْقَضَّ عَلَىٰ أَفْعَىٰ ضَخْمَةٍ مِنْ نَوْعِ «الْكُوبْرَا» السَّامَّةِ شَدِيدَةِ الْخُطُورَةِ، وَالَّتِي كَادَتْ تَهْجُمُ عَلَىٰ الْأَمِيرِ «مِحْرَاز» فِي أَثْنَاءِ جَلْسَتِهِ، فَانْغَرَسَ الْجُزْءُ الْمُدَبَّبُ مِنْ فَرْعِ الشَّجَرَةِ فِي رَقَبَتِهَا، فَارْتَمَتْ عَلَىٰ الْأَرْضِ وَسْطَ دَهْشَةِ الْأَمِير «مِحْرَاز» وَمَنْ كَانُوا حَوْلَهُ.

قَالَ «عُمَرُ خَان» فِي سُرْعَةٍ:

- سَيْفُكَ سَيِّدِي الْأَمِير مِنْ فَضْلِكَ ...

وَبِشَكْلٍ عَفْوِيٍّ وَسَرِيعٍ، وَدُونَ أَنْ يَسْتَوْعِبَ الْأَمِيرُ مَا يَحْدُثُ مِنْ حَوْلِهِ، أَعْطَىٰ سَيْفَهُ لِلْعَبْدِ الشُّجَاعِ «عُمَرُ خَان»، الَّذِي أَمْسَكَ بِالسَّيْفِ وَبِضَرْبَةٍ وَاحِدَةٍ قَوِيَّةٍ ثُمَّ فَصَلَ رَأْسَ الْأَفْعَىٰ عَنْ جَسَدِهَا.

وَفِي أَدَبٍ جَمٍّ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَ حَيَاةَ الْأَمِيرِ مِنْ مَوْتٍ مُحَقَّقٍ، قَالَ «عُمَرُ خَان» لِلْأَمِير:

– نَحْمَدُ اللهَ عَلَىٰ سَلَامَتِكُمْ سَيِّدِي الْأَمِير.

وَبَعْدَ لَحَظَات تَأَمُّلٍ وَتَفْكِيرٍ لِمَا حَدَثَ، وَفَهْمِهِ لِلْمَوْقِفِ، وَرُؤْيَتِهِ لِلأَفْعَىٰ الضَّخْمَةِ الَّتِي انْشَطَرَت رَأْسُهَا عَنْ جَسَدِهَا، وَهَذَا التَّصَرُّفُ الشُّجَاعُ مِنْ هٰذَا الْعَبْدِ الهُمَامِ، قَامَ الْأَمِيرُ «مِحْرَاز» مِنْ جَلْسَتِهِ، وَقَالَ مُبْتَسِمًا:

– أَحْسَنْتَ التَّصَرُّفَ أَيُّهَا الْعَبْدُ الشُّجَاعُ الْمُخْلِصُ، وَإِنْقَاذُكَ لِحَيَاتِي لَنْ أَنْسَاهُ وَلَكِنَّنِي لَمْ أَرَكَ مِنْ قَبْل، فَمَنْ أَنْتَ؟ وَمَا اسْمُكَ؟

وَبِالْأَدَبِ الجَمِّ نَفْسِهِ رَدَّ «عُمَرُ خَان» عَلَىٰ الْأَمِيرِ وَقَالَ:

– سَيِّدِي الْأَمِير حَفِظَكَ اللهُ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ ... أَنَا أَحَدُ عَبِيدِكَ الْجُدُد، اسْمِي «عُمَرُ خَان».

وَأُعْجِبَ الْأَمِيرُ «مِحْرَاز» إِعْجَابًا شَدِيدًا بِهَذَا الْعَبْدِ الهُمَامِ وَرَبَّتَ عَلَىٰ كَتِفِهِ تَعْبِيرًا عَنْ هٰذَا الإِعْجَاب.

وَاجْتَمَعَ أُمَرَاءُ وَعَبِيدُ رِحْلَةِ الْصَيْدِ الَّذِينَ كَانُوا مُتَفَرِّقِينَ فِي الْغَابَةِ، وَعَلِمُوا مَا حَدَثَ، وَهَنَّأُوا الْأَمِيرَ عَلَىٰ نَجَاتِهِ، وَأَثْنَوْا عَلَىٰ حُسْنِ تَصَرُّفِ الْعَبْدِ «عُمَرُ خَان»، وَعَادَ الْجَمِيعُ إِلَىٰ الْقَصْرِ وَهُمْ فِي فَرْحَةٍ وَسَعَادَةٍ مِنْ سَلَامَةِ أَمِيرِهِمْ وَنَجَاتِهِ مِنْ مَوْتٍ مُحَقَّقٍ.

وَأُقِيمَتْ الاحْتَفَالَاتُ فِي الْقَصْرِ بِمُنَاسَبَةِ نَجَاةِ الْأَمِيرِ «مِحْرَاز»، وَصَاحَبَتْ هٰذِهِ

الاحْتِفَالاَتُ تَعْلِيقَ الزِّينَاتِ وَالْأَنْوَارِ، وَتَرَدَّدَتْ فِي جَنَبَاتِ الْقَصْرِ الْمُوسِيقَا، وَرَقَصَتْ الرَّاقِصَات الْفَاتِنَات وَتَغَنَّت الْمُغَنِّيَات وَالمُغَنِّيين بِأَحْلَىٰ الْأَغَانِي لِهٰذِهِ الْمُنَاسَبَةِ الْغَالِيَةِ.

وَتَمَّ مَنْحُ الْعَبْدِ «عُمَرُ خَان» نَوْطَ الشَّجَاعَةِ، الَّذِي يَسْمَحُ لَهُ بِمُمَيِّزَاتٍ عَدِيدَةٍ، وَيُعْفِيهِ مِنْ أَدَاءِ الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ، كَمَا يَسْمَحُ لَهُ بِحُرِّيَّةِ الْانْتِقَالِ بَيْنَ أَجْزَاءٍ مِنْ جَنَبَاتِ الْقَصْرِ.

وَفِي حَفْلٍ مِنْ هٰذِهِ الْحَفَلاَتِ الَّتِي اسْتَمَرَّتْ أَيَّامًا وَلَيَالِيًا، شَاهَدَ «عُمَرُ خَان» لِأَوَّلِ مَرَّةٍ الْفَتَاةَ «چِي چِي بَان» الْوَصِيفَةَ الْخَاصَّةَ لِلْأَمِيرَةِ «مَايَا»، شَاهَدَ تِلْكَ الْفَتَاةَ الرَّائِعَةَ وَهِيَ تُقَدِّمُ لَهُ صِينِيَّة مِنَ الْفِضَّةِ عَلَيْهَا بَعْضُ ثِمَارِ التُّفَّاحِ الْأَحْمَرِ اللَّذِيذِ، تَحِيَّةً لَهُ عَلَىٰ إِنْقَاذِ أَمِيرِ الْجَزِيرَة.

وَمَا أَنْ شَاهَدَ «عُمَرُ خَان» الْوَصِيفَة «چِي چِي بَان» حَتَّى تَسَمَّرَ فِي مَكَانِهِ وَمَلأَت عُيْنَيْهِ وَجْهُهَا الْمُشْرِقُ، فَلَقَدْ كَانَ جَمَالُهَا لاَ يُوصَفُ، وَكَأَنَّهَا حُورِيَّةٌ مِنْ حُورِ الْجَنَّةِ هَبَطَتْ عَلَىٰ الْأَرْضِ، فَلاَ يُعْقَلُ أَنْ تَكُونَ إِحْدَىٰ بَنَاتِ حَوَّاءَ بِهٰذَا الْجَمَال، وَكَأَنَّ نَظْرَتَهُ إِلَىٰ عَيْنَيْهَا قَدْ سَحَرَتْهُ وَحَوَّلَتْهُ إِلَىٰ تِمْثَالٍ لاَ يَتَحَرَّكُ، وَلاَ يَنْطِقُ، وَتَمَنَّىٰ أَنْ تَدُومَ هَذِهِ اللَّحْظَةُ حَتَّىٰ آخِرِ عُمُرِهِ.

وَمِنْ نَاحِيَتِهَا هِي، فَقَدْ حَدَثَ لَهَا مَا حَدَثَ لِـ «عُمَر خَان»، فَقَد اسْتَوْلَتْ وَسَامَةُ الشَّابِّ وَجَمَالُ عَيْنَيْهِ، وَسَحَرَتْ شَخْصِيَّتُهُ الْفَتَاةَ، فَتَحَوَّلَتْ هِي الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ تِمْثَالٍ لاَ يَتَحَرَّكُ وَلاَ يَنْطِقُ، وَتَمَنَّتْ هِي أَيْضًا أَنْ تَدُومَ هَذِهِ اللَّحْظَة حَتَّىٰ آخِرِ عُمْرِهَا.

وَتَنَبَّهَ كُلٌّ مِنْ «عُمَر خَان» و« چِي چِي بَان» مِنْ أَنَّهُمَا تَحْتَ أَنْظَارِ مَنْ فِي الْقَصْرِ، فَقَالَ لَهَا:

- مَا اسْمُكِ؟

- چِي چِي بَان.

- مَا أَجْمَلَ هَذَا الاسْمَ.
- الأَجْمَلُ مِنْهُ هُوَ اسْمُكَ يَا «عُمَرُ خَان».
- أَنَا وَاثِقٌ تَمَامًا مِنْ أَنَّنِي قَدْ رَأَيْتُكِ فِي أَحْلاَمِي عِدَّةَ مَرَّات.
- وَأَنَا كَذَلِكَ ... فَقَدْ رَأَيْتُكَ فِي أَحْلاَمِي مَرَّات عَدِيدة.
- أَشْعُرُ تَمَامًا أَنَّكِ قَدَرِي، وَلاَ مَفَرَّ مِنْ ذَلِكَ.
- هُوَ نَفْسُ شُعُورِي أَنَّكَ قَدَرِي، وَلَكِنْ أَخْشَىٰ أَنْ يُلاَحِظَنَا أَحَد.
- إِذًا سَنَتَقَابَلُ بَعْدَ انْتِصَافِ اللَّيْلِ عِنْدَ شَجَرَةِ الْيَاسْمِين الْمُجَاوِرَةِ لِسُورِ الْقَصْرِ.
- رَغْمَ أَنَّنِي خَائِفَةٌ، لِكِن سَآتِي فِي الْمِيعَادِ عِنْدَ شَجَرَةِ الْيَاسْمِين.
- إِلَىٰ اللِّقَاءِ يَا أَجْمَلُ مَنْ رَأَيْتُ فِي حَيَاتِي.
- إِلَىٰ اللِّقَاءِ يَا أَشْجَعَ مَنْ رَأَيْتُ فِي حَيَاتِي.

وَافْتَرَقَ «عُمَرُ خَان» عَنْ « چِي چِي بَان» عَلَىٰ أَمَلِ التَّلاَقِي فِي الْمِيعَادِ وَالْمَكَانِ الْمُحَدَّدَيْنِ.

وَعَادَ الشَّابُّ إِلَىٰ مَكَانِ إِقَامَتِهِ وَهُوَ فِي قِمَّةِ السَّعَادَةِ، وَهُنَاكَ الْتَقَىٰ صَدِيقَهُ «فَيْرُوز» وَلاَحَظَ فَيْرُوزُ عَلَىٰ صَدِيقِهِ هَذِهِ الْحَالَةَ مِنَ السَّعَادَةِ الْغَامِرَة، فَوَجْهُهُ يَنْطِقُ بِهَا، فَاسْتَفْسَرَ عَنِ السِّرِّ، فَحَكَىٰ لَهُ كُلَّ شَيْءٍ بِالتَّفْصِيلِ.

وَهُنَا تَجَهَّمَ وَجْهُ «فَيْرُوز» وَقَال لِصَدِيقِهِ بَعْدَ أَنْ بَدَتْ عَلَىٰ مَلاَمِحِهِ حَالَةٌ مِنَ الْقَلَقِ.

- صَدِيقِي الْعَزِيز «عُمَرُ خَان» إِنَّ الطَّرِيقَ الَّذِي تُرِيدُ أَنْ تَسِيرَ فِيهِ شَائِكٌ لِلْغَايَةِ، طَرِيقٌ نِهَايَتُهُ خَطِيرةٌ.

– وَلَكِنْ يَا صَدِيقِي فَيْرُوز لَيْسَ لِي أَنْ أَخْتَارَ، فَإِنَّ هُنَاكَ قُوَّةً بِدَاخِلِي تَدْفَعُنِي دَفْعًا لِلتَّوَاصُلِ مَعَ هَذِهِ الفَتَاةِ الَّتِي تُدْعَىٰ « چِي چِي بَان».

– هَلْ تَعْلَم مَاذَا سَيَحْدُثُ إِذَا افْتَضَحَ أَمْرُكُمَا؟

– لاَ أَعْرِفُ، وَلاَ أُرِيدُ أَنْ أَعْرِفَ.

– إِنَّهَا قَوَانِينُ الْقَصْرِ يَا صَاحِبِي، فَكُلُّ عَبْدٍ يَتَجَرَّأُ عَلَىٰ أَيَّةِ فَتَاةٍ مِنْ نِسَاءِ الْقَصْرِ يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ، وَإِذَا كَانَ هَذَا بِرَغْبَةِ الْفَتَاةِ يُحْكَمُ عَلَيْهَا أَيْضًا بِالمَوْتِ.

– فَيْرُوز ... أَنَا وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي حَيَاتِي أَكُونُ مَسْلُوبَ الْإِرَادَةِ، فَالرَّغْبَةُ بِدَاخِلِي شَدِيدَةٌ لِلْغَايَةِ وَتَدْفَعُنِي نَحْوَهَا. أَيَكُونُ هَذَا نَوْعًا مِنَ السِّحْرِ يَا فَيْرُوز؟

وَسَادَ الصَّمْتُ بَيْنَ الصَّدِيقَيْنِ، وَهَزَّ فَيْرُوزُ رَأْسَهُ وَكَأَنَّ مُشْكِلَةً كَبِيرَةً أَمَامَهُ لَيْسَ لَهَا حَلٌّ وَبَعْدَ بُرْهَةٍ قَالَ «فَيْرُوز» فِي مُحَاوَلَةٍ أَخِيرَةٍ لِإِقْنَاعِ صَدِيقِهِ بِالانْصِرَافِ عَنْ هَذَا الْمَوْضُوعِ:

– يَا صَدِيقِي «عُمَرُ» أَنَا أَيْضًا أُحِبُّ الْفَتَاةَ «بَنْدَرَة» وَهِيَ تُحِبُّنِي، وَلَكِنَّنَا نُحَكِّمُ الْعَقْلَ فِي هَذَا الأَمْرِ حَيْثُ نَلْتَقِي فِي الْمُنَاسَبَاتِ الْعَامَّةِ حَيْثُ الْجَمِيعِ يَحْتَفِلُونَ وَمُنْشَغِلُونَ، أَمَّا الْمُقَابَلاتُ اللَّيْلِيَّةُ سِرًّا فَأَمْرٌ فِي مُنْتَهَىٰ الْخُطُورَة.

رَدَّ «عُمَر خَان» فِي عَزْمٍ وَتَصْمِيمٍ:

– مَهْمَا يَكُنْ الْأَمْر، وَمَهْمَا كَانَتْ الْمَخَاطِر، سَأَذْهَبُ لِلِقَائِهَا حَسَبَ الْمِيعَادِ وَالْمَكَانِ الْمُحَدَّدَيْنِ.

وَعِنْدَمَا وَجَدَ «فَيْرُوز» صَدِيقَهُ بِهَذَا الْعَزْم وَالتَّصْمِيم قَالَ لَهُ:

– مَا دَامَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَدَعْنِي يَا صَدِيقِي أَكُونُ عَلَىٰ مَقْرُبَةٍ مِنْكُمَا بِحَيْثُ لَوْ شَعَرْتُ أَنَّ هُنَاكَ مَنْ سَيَكْشِفُ سِرَّكُمَا، أُعْطِيكَ إِشَارَةً لِتَبْتَعِدَا فَوْرًا.

ابْتَسَمَ «عُمَر خَان» وَشَكَرَ صَدِيقُهُ «فَيْرُوز» وَقَالَ:

- وَهُوَ كَذَلِكَ يَا صَدِيقِي.

وَفِي مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ، وَعِنْدَ شَجَرَةِ الْيَاسْمِينِ الَّتِي بِجِوَارِ الْقَصْرِ كَانَ اللِّقَاءُ بَيْنَ «عُمَر خَان» و« چِي چِي بَان» كَانَ كُلُّ شَيْءٍ هَادِيءٍ، وَلاَ شَيْءَ يُعَكِّرُ صَفْوَ اللِّقَاءِ، وَعَنْ بُعْدٍ وَقَفَ «فَيْرُوز» فِي الظَلاَمِ يُرَاقِبُ الْمَكَانَ بِحِرْصٍ وَمُسْتَعِدٌّ لِلتَّصَرُّفِ السَّلِيمِ وَقْتَ اللُّزُومِ.

وَجَلَسَ الْحَبِيبَانِ تَحْتَ شَجَرَةِ الْيَاسْمِين الَّتِي عَطَّرَتْ الْمَكَانَ بِرَائِحَةِ زُهُورِهَا الْجَمِيلَةِ، وَنَظَرَ كُلٌّ مِنْهُمَا إِلَىٰ الْآَخَرَ وَهُمَا لاَ يُصَدِّقَانِ أَنَّهُمَا فِي حَقِيقَةٍ لاَ أَحْلاَمَ، ثُمَّ بَدَأَ «عُمَر خَان» الْكَلاَمَ فَحَكَىٰ لَهَا حِكَايَتَهُ مُنْذُ تَرَكَ وَالِدَهُ وَوَالِدَتَهُ حَتَّىٰ اللَّحْظَةَ الَّتِي جَمَعَتْهُمَا مَعًا، وَقَدْ أَصْبَحَ عَبْدًا يُبَاعُ وَيُشْتَرَىٰ رَغْمَ مَكَانَتِهِ وَعُلُوِّ أَصَالَتِهِ، وَهُنَا سَأَلَ «عُمَرُ خَان» الْفَتَاةَ عَنْ حِكَايَتِهَا، فَتَنَهَّدَتْ قَلِيلاً، وَنَظَرَتْ فِي الْأُفُقِ ثُمَّ بَدَأَتْ تَحْكِي فَقَالَتْ:

- أَنَا مِنْ إِحْدَىٰ الْعَائِلاَتِ الرُّومَانِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ، وَكَانَتْ أُسْرَتِي تَعِيشُ فِي قَصْرٍ كَبِيرٍ فِي وَسَطِ مَزَارِعَ وَحَدَائِقَ شَاسِعَةٍ، وَلَدَيْهَا كُلُّ أَسْبَابِ الْعِيشَةِ الْمُتْرَفَةِ مِثْلَ عِيشَةِ الْأُمَرَاءِ، فَأَبِي كَانَ رَجُلاً ثَرِيًّا يَمْتَلِكُ الْأَرَاضِي الْوَاسِعَةَ الَّتِي تُنْتِجُ أَفْضَلَ الْمحَاصِيلِ الزِّرَاعِيَّةِ وَالْفَوَاكِهِ الْمُتَنَوِّعَةِ، وَكَانَتْ لَدَيْهِ مَجْمُوعَاتٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الْخُيُولِ الْأَصِيلَةِ، وَحَيَوَانَاتِ الْمَزْرَعَةِ الْمُنْتِجَةِ لِلُّحُومِ، وَالْأَلْبَانِ، وَالْجُلُودِ. أَمَّا أُمِّي فَهِيَ بِنْتُ أَحَدِ الْأُمَرَاءِ الرُّومَانِ الَّذِينَ يَشْتَهِرُونَ بِالنُّبْلِ وَالْعَرَاقَةِ، وَكُنْتُ أَنَا ابْنَتَهُمَا الْوَحِيدَةَ فَنِلْتُ مِنَ الرِّعَايَةِ وَالتَّدْلِيلِ الْكَثِيرَ وَأَنَا طِفْلَةٌ صَغِيرَةٌ، حَتَّىٰ بَلَغْتُ الْعَاشِرَةَ مِنْ عُمُرِي.

- ثُمَّ جَاءَ الْيَوْمُ الْمَشْؤومُ الَّذِي قَلَبَ حَيَاتِي رَأْسًا عَلَىٰ عَقِبٍ، حَيْثُ هَجَمَ عَلَىٰ الْقَصْرِ لَيْلاً عِصَابَةٌ مِنَ الْأَشْرَارِ بِقَصْدِ السَّرِقَةِ وَالسَّلْبِ وَالنَّهْبِ، فَاعْتَرَضَ أَبِي

رِجَالَ هَذِهِ الْعِصَابَة، فَمَا كَانَ مِنْهُم إِلاَّ أَنْ قَتَلُوهُ، وَعِنْدَمَا حَاوَلَتْ أُمِّي أَنْ تُدَافِعَ عَنْهُ فَقَتَلُوهَا هِي الْأُخْرَىٰ، وَسَرَقُوا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْمُجَوْهَرَاتِ وَالْمَشْغُولاَتِ الذَّهَبِيَّةِ، والتُّحَفِ غَالِيَةِ الثَّمَنِ، وَكُلِّ شَيْءٍ لَهُ قِيمَةٌ، وَعِنْدَمَا لاَحَظُوا وُجُودِي وَأَنَا أَكَادُ أَمُوتُ مِنَ الْفَزَعِ وَالرُّعْبِ إِلَى حَدِّ أَنَّ الصَّرَخَاتِ انْحَشَرَتْ فِي فَمِي، وَالدُّمُوعَ تَحَجَّرَتْ فِي مُقْلَتَيّ، اتَّخَذُوا قَرَارًا بِقَتْلِي، ثُمَّ تَغَيَّرَ الْقَرَارُ بِأَنْ يَحْمِلُونِي مَعَهُم وَسَمِعْتُ مَنْ يَقُولُ بِصَوْتٍ خَشِنٍ: إِنَّهَا فَتَاةٌ صَغِيرَةٌ وَجَمِيلَةٌ وَيُمْكِنُ أَنْ نَبِيعَهَا بِمَبْلَغٍ كَبِيرٍ. وَعَانَيْتُ الْكَثِيرَ مِنَ الآلاَمِ الْبَدَنِيَّةِ والنَّفْسِيَّةِ، وَقَدْ تَمَّ بَيْعِي عِدَّةَ مَرَّاتٍ فِي أَسْوَاقِ الْعَبِيدِ حَتَّى تَمَّ بَيْعِي إِلَىٰ أَحَدِ رِجَالِ الْأَمِيرِ «مِحْرَاز»، وَأَحْضَرُونِي إِلَىٰ جَزِيرةِ «طَالُوس» لِأَسْتَقِرَّ فِي هَذَا الْقَصْرِ فِي حَرِيمِ الْأَمِيرَةِ «مَايَا» الَّتِي أَحَبَّتْنِي وَقَامَت بِرَعَايَتِي وَأَمَرَتْ بِتَعْلِيمِي، حَتَّىٰ صِرْتُ وَصِيفَتَهَا مُنْذُ وَقْتٍ لَيْسَ بِبَعِيدٍ.

ابْتَسَمَ «عُمَرُ خَان» وَقَالَ:

- چِي چِي بَان ... أَشْعُرُ بَعْدَ كُلِّ مَا حَدَثَ لِي وَحَدَثَ لَكِ أَنَّ الْقَدَرَ يَدَّخِرُ لَنَا سَعَادَةً كَبِيرَةً يُعَوِّضُنَا بِهَا عَنْ كُلِّ الْأَحْزَانِ الَّتِي مَرَّتْ بِنَا ...

ابْتَسَمَتْ الْفَتَاةُ وَقَالَتْ:

- إِنْ شَاءَ اللهُ يَا عُمَر ... هَذَا هُوَ شُعُورِي نَفْسُهُ.

وَأَصْدَرَ «فَيْرُوز» صَوْتًا مُقَلِّدًا صَوْتَ طَائِرٍ، فَهِمَ مِنْهُ «عُمَر خَان» أَنَّ وَقْتَ اللِّقَاءِ انْتَهَىٰ، وَحَانَ الْوَقْتُ أَنْ يَعُودَ كُلٌّ مِنْهُمَا إِلَىٰ مَكَانِهِ، قَالَ «عُمَرُ خَان»:

- چِي چِي بَان ... حَانَ الْوَقْتُ أَنْ أُوَدِّعَكِ، عَلَىٰ أَنْ نَلْتَقِيَ هُنَا مَرَّةً كُلَّ ثَلاَثَةِ

أَيَّامٍ إِذَا كَانَتْ الْأُمُورُ عَلَىٰ مَا يُرَام، أَمَّا إِذَا حَدَثَ مَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحُسْبَانِ، فَسَأُبَلِّغُكِ بِالْمِيعَادِ الْجَدِيدِ عَنْ طَرِيقِ الْفَتَاة «بَنْدَرَة».

ضَحِكَتْ «چِي چِي بَان» وَقَالَتْ:

- بَنْدَرَة!! وَكَيْفَ تَعَرَّفْتَ عَلَىٰ هَذِهِ الْفَتَاة اللَّطِيفَة، إِنَّهَا صَدِيقَتِي الْغَالِيَة.

قَالَ الشَّابُّ:

- «بَنْدَرَة» هِيَ الْفَتَاةُ الَّتِي يُحِبُّهَا صَدِيقِي «فَيْرُوز» وَيَثِقُ بِهَا تَمَامًا ... وَالآنَ إِلَىٰ اللِّقَاءِ.

- إِلَىٰ اللِّقَاءِ يَا عُمَر خَان.

وَعَادَ كُلٌّ مِنَ الشَّابِّ وَالْفَتَاةِ إِلَىٰ مَكَانِ إِقَامَتِهِ، وَلَمْ يَحْدُثْ مَا يُعَكِّرُ صَفْوَ هَذَا اللِّقَاءِ وَشَكَرَ «عُمَر خَان» صَدِيقَهُ «فَيْرُوز» عَلَىٰ حِرْصِهِ لِتَأْمِين هَذَا اللِّقَاء.

وَتَكَرَّرَتْ هَذِهِ اللِّقَاءَات بِنَجَاحٍ فِي الْأَسَابِيعِ الْعَدِيدَةِ التَّالِيَةِ، وَتَشَجَّعَ كُلٌّ مِنْ «فَيْرُوز» و«بَنْدَرَة» لِيَلْتَقُوا مَعًا مَعَ كُلِّ لِقَاءٍ بَيْنَ «عُمَر خَان» و«چِي چِي بَان»، وَكَمْ كَانَتْ سَعَادَةُ كُلٍّ مِنْ «عُمَر خَان» و«فَيْرُوز» عَنْدَمَا كَانَا يَحْكِيَان بَعْضَ أَحْدَاثِ تِلْكَ اللِّقَاءَاتِ الرَّائِعَةِ، وَأَيْضًا كَمْ كَانَتْ سَعَادَةُ كُلٍّ مِن «چِي چِي بَان» و«بَنْدَرَة» وَهُمَا تَحْكِيَانِ بَعْضَ أَحْدَاثِ تِلْكَ اللِّقَاءَاتِ الْجَمِيلَةِ.

وَظَنَّ الْجَمِيعُ أَنَّ هَذِهِ السَّعَادَةَ الَّتِي تُرَفْرِفُ عَلَيْهِمْ دَائِمَةٌ، وَأَنَّ الْأَحْوَالَ الْآمِنَةَ بَاقِيَةٌ، وَلَكِنْ دَائِمًا مِنَ الْمُحَالِ دَوَامَ الْأَحْوَالِ.

الفَصْلُ الخَامِسُ

الزَّوَاجُ السَّعِيدُ

فِي إِحْدَىٰ اللَّيَالِي رَأَىٰ «عُمَر خَان» فِي مَنَامِهِ حُلْمًا عَجِيبًا، فَقَدْ رَأَىٰ كَمَا يَرَىٰ النَّائِمُ أَنَّهُ فِي حَفْلِ زَفَافٍ كَبِيرٍ، وَأَنَّهُ هُوَ الْعَرِيسُ حَيْثُ يَلْبِسُ أَبْهَىٰ الثِّيَابِ، وَأَمَّا الْعَرُوسُ فَهِي

فَتَاتُهُ «چِي چِي بَان» وَقَدْ بَدَتْ فِي ثَوْبِ الزِّفَافِ كَأَرْوَعِ وَأَجْمَلِ عَرُوسٍ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا.

وَشَاهَدَ لَفِيفًا كَبِيرًا مِنَ الْأَهْلِ وَالْأَقَارِبِ وَالْأَصْدِقَاءِ فِي هَذَا الْحَفْلِ الْكَبِيرِ، فَهُنَاكَ أَبُوهُ وَأُمُّهُ يَقِفَانِ مُبْتَسِمَانِ وَهُمَا فِي غَايَةِ السَّعَادَةِ، وَبِجِوَارِهِمَا يَقِفُ صَدِيقُ عُمْرِهِ

«حَسَن» يُلَوِّحُ لَهُ بِيَدِهِ وَهَا هُمْ أَصْدِقَاؤُهُ الْبَحَّارَة مِمَّنْ كَانُوا مَعَهُ فِي سِفِينَةِ «عُمَر خان» يُهَلِّلُونَ وَيُصَفِّقُونَ، وَهَا هُوَ صَدِيقُهُ «فَيْرُوز» وَبِجِوَارِهِ حَبِيبَتُهُ «بَنْدَرَة» سَعِيدَانِ وَيَنْتَظِرَانِ دَوْرَهُمَا، وَعَلَىٰ الْجَانِبِ الْآخَرِ لَاحَظَ «عُمَرُ» وُجُودَ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْأَجَانِبِ رِجَالٍ وَسَيِّدَاتٍ، وَأَفْهَمَتْهُ «چِي چِي بَان» بِأَنَّ هَؤُلَاءِ أُسْرَتُهَا وَأَهْلُهَا وَقَدْ شَاهَدَ أَيْضًا فِي الْخَلْفِ أُنَاسًا لَهُمْ أَشْكَالٌ غَرِيبَةٌ وَكَأَنَّهُم قَدْ جَاءُوا مِنْ كَوْكَبٍ آخَرَ غَيْرَ الْأَرْضِ لِيُقَدِّمُوا التَّهَانِي بِهَذَا الزَّوَاجِ السَّعِيدِ وَهُمْ يَحْمِلُونَ صُنْدُوقًا بِهِ هَدِيَّةٌ لِلْعَرُوسَيْنِ.

وَأَفَاقَ «عُمَرُ خَان» مِنْ نَوْمِهِ، وَقَدْ امْتَلَأَتْ نَفْسُهُ بِالْفَرَحِ وَالسُّرُورِ، وَكَانَ يَتَمَنَّىٰ أَلاَّ يَفِيقَ مِنْ أَحْلَامِهِ السَّعِيدَةِ، وَرَآهُ «فَيْرُوز» وَهُوَ بِهَذَا الانْشِرَاحِ وَالسَّعَادَةِ، فَسَأَلَهُ عَنْ السَّبَبِ، فَقَصَّ عَلَيْهِ مَا رَآهُ فِي مَنَامِهِ.

ضَحِكَ فَيْرُوز مُقَهْقِهًا وَقَالَ لِصَاحِبِهِ:

- صَدَقَ مَنْ قَالَ «الْجَائِعُ يَحْلُمُ بِسُوقِ الْعَيْشِ».

وَبِصُورَةٍ جِدِّيَّةٍ قَالَ عُمَرُ خَان لِصَدِيقِهِ:

- اسْمَعْ يَا فَيْرُوز ... أَنَا أُرِيدُ أَنْ أُحَقِّقَ هَذَا الْحُلْمَ وَأَجْعَلَهُ حَقِيقَةً.

اسْتَمَرَّ «فَيْرُوزُ» فِي ضَحِكِهِ وَقَالَ:

- وَصَدَقَ أَيْضًا مَنْ قَالَ «مِنَ الْحُبِّ مَا قَتَلَ»، مَا هِيَ هَذِهِ الْخُزَعْبَلَاتُ يَا صَدِيقِي.

وَاسْتَمَرَّ «عُمَرُ» فِي لَهْجَتِهِ الَّتِي تَمْلَؤُهَا الْجِدِّيَّةِ وَقَالَ:

– أَنَا أَتَحَدَّثُ بِجِدِّيَّةٍ وَلاَ أَقُولُ خُزَعْبِلاَت، أَنَا لاَبُدَّ أَنْ أَتَزَوَّجَ مِنْ حَبِيبَتِي «چِي چِي بَان».

قَالَ «فَيْرُوزُ» فِي حَيرَةٍ:

– يَا صَدِيقِي عُمَر إِنَّ مَا تَقُولُهُ هَذَا مُسْتَحِيلٌ لِأَنَّ قَوَانِينَ الْقَصْرِ تُحَرِّمُ هَذَا الزَّوَاجَ نِهَائِيًا.

رَدَّ «عُمَرُ خَان» فِي تَذَمُّرٍ:

– لَيْسَ لِي شَأْنٌ بِقَوَانِينِ الْقَصْرِ، فَلَقَدْ أَبَاحَ اللهُ تَعَالَىٰ لَنَا أَنْ نَتَزَوَّجَ مِمَّنْ نُحِبُّ.

– هَذَا أَمْرٌ خَطِيرٌ يَا صَدِيقِي.

– وَأَنَا مُسْتَعِدٌّ لِهَذَا الْخَطَرِ، وَمُسْتَعِدٌّ أَنْ أَتَحَمَّلَ نَتَائِجَهُ، أَمَا قُلْتَ لِي أَنَّ هُنَاكَ رَجُلًا فِي الْجَزِيرَةِ يُدْعَىٰ «قَشْمِير» يُوَثِّقُ عُقُودَ الزَّوَاجِ؟

– نَعَمْ أَعْرِفُهُ مَعْرِفَةً تَامَّةً.

– إِذَنْ لِنَضَعَ خِطَّةً بِحَيْثُ نَخْرُجُ مِنَ الْقَصْرِ بِعَرَبَةٍ تَجُرُّهَا الْخَيْلُ، وَعَلَيْكَ أَنْ تُدَبِّرَ الْأَمْرَ بِحَيْثُ تَكُونُ «چِي چِي بَان» و«بَنْدَرَة» مَعَنَا، وَعَلَيْنَا أَنْ نَخْتَارَ يَوْمًا مُنَاسِبًا يَكُونُ فِيهِ أَهْلُ الْقَصْرِ مُنْشَغِلِينَ.

– أَفْضَلُ يَوْمٍ وَأَقْرَبُ يَوْمٍ هُوَ عِيدُ الزُّهُورِ؛ لِأَنَّهُ سَيَأْتِي بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ.

– إِذَنْ فَلْنَتَحَرَّكْ لِتَنْفِيذِ هَذِهِ الْخُطَّةِ.

– وَهُوَ كَذَلِكَ يَا صَدِيقِي ... وَرَبُّنَا يَسْتُرُ.

وَأَخْبَرَ «عُمَرُ خَان» بِخُطَّتِهِ لِلْفَتَاةِ «چِي چِي بَان» فَوَافَقَتْ عَلَيْهَا فَوْرًا، وَعِنْدَمَا أَخْبَرَ «فَيْرُوز» الْفَتَاةَ «بَنْدَرَة» بِالْخُطَّةِ خَافَتْ أَوَّلَ الْأَمْرِ، وَلَكِنَّ «فَيْرُوز» أَكَدَّ أَنَّ «عُمَرُ خَان»

يُصِرُّ عَلَىٰ تَنْفِيذِهَا، فَوَافَقَتْ رَغْمَ قَلَقِهَا مِنَ الْعَوَاقِبِ الَّتِي سَتَحْدُثُ إِذَا تَمَّ وَانْكَشَفَ الْأَمْرُ لِأَهْلِ الْقَصْرِ.

وَتَمَّ إِعْدَادُ كُلِّ شَيْءٍ لِنَجَاحِ الْخُطَّةِ، فَهُنَاكَ عَرَبَةٌ يَجُرُّهَا الْخَيْلُ سَتَكُونُ مُعَدَّةً لِمُغَادَرَةِ الْقَصْرِ فِي أَثْنَاءِ الاحْتِفَالِ بِعِيدِ الزُّهُورِ، وَسَاعَدَ فِي ذَلِكَ الصَّلاَحِيَّاتُ الَّتِي

يَمْتَلِكُهَا «عُمَرُ خَان»، وَأَجْرَىٰ «فَيْرُوز» اتِّصَالاَتٍ بـ «قَشْمِير» مُوَثِّقُ عُقُودِ الزَّوَاجِ فِي الْجَزِيرَةِ لِيَكُونَ جَاهِزًا فِي بَيْتِهِ لِعَقْدِ الزَّوَاجِ بَيْنَ الْعَرُوسَيْنِ.

وَأَقْبَلَ يَوْمُ عِيدِ الزُّهُورِ، واسْتَعَدَّ كُلُّ مَنْ فِي الْقَصْرِ لِهَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ السَّعِيدَةِ، وَأُقِيمَ احْتِفَالٌ ضَخْمٌ فِي السَّاحَةِ الْكَبِيرَةِ لِلْقَصْرِ، وَبَدَأَ الاحْتِفَالُ بِمَوْكِبٍ كَبِيرٍ لِعَرَبَاتٍ مَلِيئَةٍ بِالزُّهُورِ وَمِنْ خَلْفِهَا فَتَيَاتٌ يَرْقُصْنَ عَلَىٰ الْمُوسِيقَا وَهُنَّ يَرْتَدِينَ ثِيَابًا مِنَ الزُّهُورِ، كَمَا

أَنَّ هُنَاكَ أَطْفَالاً يُمْسِكُونَ بِبَاقَاتِ الزُّهُورِ مُتَعَدِّدَةِ الْأَلْوَانِ، وَهُمْ يَتَمَايَلُونَ مَعَ مُوسِيقَىٰ الاحْتِفَالِ فِي مَنْظَرٍ بَهِيجٍ يُسْعِدُ النَّاظِرِينَ.

وَحَضَرَ الاحْتِفَالَ الْأَمِيرُ «مِحْرَاز» وَالْأَمِيرَة «مَايَا» وَهُمَا يَرْتَدِيَانِ أَفْخَمَ الثِّيَابِ، وَمِنْ حَوْلِ عُنُقِ كُلٍّ مِنْهُمَا إِكْلِيلٌ مِنَ الزُّهُورِ، وَمِنْ حَوْلِهِمَا الْحَرَسُ وَالْعَبِيدُ وَالْفَتَيَاتُ وَهُمْ يَرْتَدُونَ كَذَلِكَ أَكَالِيلَ الزُّهُورِ. وَبَدَتْ عَلَىٰ الْجَمِيعِ حَالَةٌ مِنَ السُّرُورِ وَالْفَرَحِ بِمُنَاسَبَةِ هَذَا الْعِيدِ الَّذِي يَحْتَفِلُونَ بِهِ كُلَّ عَامٍ.

وَفِي الْجَانِبِ الْآخَرِ مِنَ الْقَصْرِ فِي تِلْكَ اللَّحَظَاتِ انْطَلَقَتْ عَرَبَةٌ تَجُرُّهَا الْخُيُولُ مِنْ بَابِ الْقَصْرِ بَعْدِ السَّمَاحِ لَهَا بِالْعُبُورِ لِمَعْرِفَةِ قَائِدِهَا بِكَلِمَةِ السِّرِّ، وَكَانَ هَذَا الْقَائِدُ هُوَ الْعَبْدُ «فَيْرُوز»، انْطَلَقَتْ فِي اتِّجَاهِ مَكَانٍ مُعَيَّنٍ فِي الْجَزِيرَةِ، وَبِدَاخِلِ الْعَرَبَةِ الشَّابُّ «عُمَرُ خَان» وَهُوَ غَيْرُ مُصَدِّقٍ لِمَا يَحْدُثُ وَمَعَهُ الْفَتَاتَانِ «چِي چِي بَان» و«بَنْدَرَة» وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تُخْفِي نَفْسَهَا دَاخِلَ عَبَاءَةٍ سَوْدَاءَ.

وَوَصَلَ الرَّكْبُ إِلَىٰ بَيْتِ «قَشْمِير» مُوَثِّقِ عُقُودِ الزَّوَاجِ الَّذِي كَانَ مُسْتَعِدًا لِعَقْدِ الزَّوَاجِ حَسَبَ الاتِّفَاقِ الْمُسْبَقِ مَعَ «فَيْرُوز».

وَبِالْفِعْلِ قَامَ «قَشْمِير» بِمَرَاسِمَ عَقْدِ زَوَاجِ الشَّابِّ «عُمَرُ خَان» وَالْفَتَاةِ «چِي چِي بَان» وَكَانَ الشُّهُودُ عَلَىٰ هَذَا الْعَقْد كُلٌّ مِنْ «فَيْرُوز» وَ«بَنْدَرَة»، وَكَتَبَ «قَشْمِير» نُسْخَتَيْنِ مِنَ الْعَقْدِ أَعْطَىٰ نُسْخَةً لِلْعَرِيسِ، وَنُسْخَةً لِلْعَرُوسِ، وَقَالَ «قَشْمِير» فِي نِهَايَةِ الْجِلْسَةِ:

– أَنْتُمَا الْآنَ زَوْجَانِ أَمَامَ النَّاسِ، وَأَمَامَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلْيُحَافِظْ كُلٌّ مِنْكُمَا

عَلَىٰ الْآخَرِ وَأَنْتَ يَا «عُمَرُ خَان» لَقَدْ أَعْطَاكَ اللهُ زَوْجَةً مُبَارَكَةً، حَافِظْ عَلَيْهَا وَصُنْ هَذِهِ الْأَمَانَة وَاحْمِها، وَضَحِّ مِنْ أَجْلِهَا بِكُلِّ غَالٍ وَنَفِيسٍ، وَأَنْتِ يَا «چِي چِي بَان» لَقَدْ مَنَحَكِ رَبُّ الْعِزَّةِ وَالْجَلَالِ زَوْجًا هُوَ مِنْ أَفْضَلِ الشَّبَابِ، حَافِظِي عَلَيْهِ، إِذَا نَظَرَ إِلَيْكِ سُرَّ وَإِذَا أَقْسَمَ عَلَيْكِ نَفَّذْتِ قَسَمَهُ، وَإِذَا غَابَ عَنْكِ حَفِظْتِيهِ. أَدْعُو اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُبَارِكَ هَذَا الزَّوَاجَ، وَأَنْ يَرْزُقَكُمَا بِالذُّرِّيَّةِ الصَّالِحَةِ.

وَشَكَرَ الْجَمِيعُ «قَشْمِير» عَلَىٰ عَقْدِهِ لِهَذَا الزَّوَاج، وَعَلَىٰ النَّصَائِحِ الَّتِي قَالَهَا لِلْعَرُوسَيْنِ، وبَعْدَ أَنْ أَخَذَ «قَشْمِير» أُجْرَتَهُ لِمَا قَامَ بِهِ شَكَرَ الْجَمِيعَ وَوَدَّعَهُم بِأَدْعِيَةٍ مُبَارَكَةٍ.

وَعَادَتْ الْعَرَبَةُ سَرِيعًا إِلَىٰ الْقَصْرِ، وَكُلُّ مَنْ فِيهَا فِي غَايَةِ السَّعَادَةِ بِهَذَا الزَّوَاجِ، وَهُمْ غَيْرُ مُصَدِّقِينَ نَجَاحَ خِطَّتِهِمْ بِهَذَا الْيُسْرِ وَالسُّهُولَةِ، وَدَخَلُوا الْقَصْرَ دُونَ أَنْ يَشْعُرَ بِهِمْ أَحَد، فَوَجَدُوا أَنَّ الاحْتِفَالَ بِعِيدِ الزُّهُورِ مَازَال قَائِمًا.

وَاعْتَبَرَ الْعَرِيسُ «عُمَرُ خَان» وَالْعَرُوسُ «چِي چِي بَان» هَذَا الاحْتِفَالَ لَيْسَ بِـ «عِيدِ الزُّهُورِ» وَإِنَّمَا هُوَ احْتِفَالٌ بِعُرْسِهِمَا.

وَانْتَهَىٰ يَوْمُ الاحْتِفَالِ بِـ «عِيدِ الزُّهُور»، وَسَارَتْ الْأُمُورُ فِي الْقَصْرِ بَعْدَهُ بِصُورَةٍ عَادِيَّةٍ، وَلَكِنَّ الَّذِي لَمْ يَكُنْ عَادِيًا، أَنَّ هُنَاكَ عَرُوسًا جَمِيلَةً، بَلْ هِيَ أَجْمَلُ فَتَاةٍ فِي الْقَصْرِ، قَدْ تَزَوَّجَتْ مِنْ أَرْوَعِ شَابٍّ رَأَتْهُ فِي حَيَاتِهَا، وَغَمَرَتْ السَّعَادَةُ حَيَاتَهُمَا، وَتَمَنَّىٰ «عُمَرُ خَان» أَنْ يَعْلَمَ كُلُّ مِنْ أَبِيهِ وَأُمِّهِ بِتِلْكَ السَّعَادَةِ الْغَامِرَةِ الَّتِي يَعِيشُهَا بَعْدَ أَنْ تَزَوَّجَ حَبِيبَةَ قَلْبِهِ الْعَرُوسَ الْمُدْهِشَةَ «چِي چِي بَان».

وَكَانَ لِقَاءُ الْعَرُوسَيْنِ يَتِمُّ فِي أَيَّامٍ مُعَيَّنَةٍ عِنْدَمَا يُسْدِلُ اللَّيْلُ أَسْتَارَهُ، وَفِي سِرِّيَّةٍ تَامَّةٍ حَيْثُ كَانَ دَائِمًا صَدِيقُهُ «فَيْرُوز» يُرَاقِبُ الْمَكَانَ وَيَمْنَحُ الْعَرُوسَيْنِ لِقَاءَاتٍ آمِنَةً، وَأَحْيَانًا كَانَتْ «بَنْدَرَة» تُسْهِمُ فِي ذَلِكَ، وَهِيَ سَعِيدَةٌ بِسَعَادَةِ صَدِيقَتِهَا الْعَزِيزَةِ.

وَلَكِنْ مِنَ الْمُحَالِ دَوَامُ الْأَحْوَالِ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ بِدَايَةٌ، فَلاَبُدَّ أَنْ تَكُونَ لَهُ نِهَايَةٌ، فَقَدْ حَدَثَ الْمَحْذُورُ، وَظَهَرَ الْمَخْفِي، وَتَمَّ كَشْفُ السِّرِّ الَّذِي ظَلَّ طَوِيلاً فِي طَيِّ الْكِتْمَانِ وَعَرَفَ كُلُّ أَهْلِ الْقَصْرِ قِصَّةَ الْحُبِّ وَالزَّوَاجِ الَّذِي تَمَّ بَيْنَ الْعَبْدِ «عُمَرُ خَان»، وَوَصِيفَةِ الْأَمِيرَة «چِي چِي بَان»، فَقَامَتْ الدُّنْيَا فِي الْقَصْرِ وَلَمْ تَقْعُد لِهَذَا الْأَمْرِ الْجَلَلِ الَّذِي لَمْ يَحْدُثْ مِنْ قَبْل، فَهَذِهِ مُخَالَفَةٌ صَرِيحَةٌ لَقَوانِينِ الْقَصْرِ، وَعِقَابُهَا يَصِلُ إِلَىٰ دَرَجَةِ الْـمَوْتِ بِحَدِّ السَّيْفِ.

الفَصْلُ السَّادِسُ

الْجَرِيمَةُ وَالْعِقَابُ

كَانَتْ الْبِدَايَةُ مِنْ عِنْدِ الْمَرْأَةِ «حَزْمِيل» الَّتِي تَبْلُغُ مِنَ الْعُمْرِ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِينَ عَامًا، وَالْمُشْرِفَةُ الْعَامَّةُ عَلَىٰ جَوَارِي الْقَصْرِ وَحَرِيمِهِ، وَهِيَ فِي غَايَةِ الْحَزْمِ وَالشِّدَّةِ إِلَىٰ حَدِّ القَسْوَةِ فِي مُعَامَلَةِ فَتَيَاتِ الْقَصْرِ الْمُشْرِفَةِ عَلَيْهِنَّ. فَقَدْ لاَحَظَتْ «حَزْمِيل» بَعْضَ التَّصَرُّفَاتِ وَالسُّلُوكِيَّاتِ غَيْرِ الْعَادِيَّةِ عَلَىٰ الْوَصِيفَةِ «چِي چِي بَان» وَكَأَنَّهَا تُحَاوِلُ أَنْ تُخْفِيَ شَيْئًا مَّا عَمَّا حَوْلَهَا. فَقَرَّرَتْ الْمُشْرِفَةُ مُرَاقَبَتَهَا عَنْ بُعْدٍ وَدُونَ أَنْ تَشْعُرَ الْفَتَاةُ بِهَذِهِ الْمُرَاقَبَةِ.

وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ ذَهَبَتْ «چِي چِي بَان» مَعَ الْأَمِيرَةِ «مَايَا» فِي رِحْلَةِ تَنَزُّهٍ خَارِجَ الْقَصْرِ بِصُحْبَةِ مَجْمُوعَةٍ مَنْ حَرِيمِ الْقَصْرِ، وَتَحْتَ حِرَاسَةِ بَعْضِ الْحُرَّاسِ، فَانْتَهَزَتْ الْمُشْرِفَةُ «حَزْمِيل» هَذِهِ الْفُرْصَة، وَأَجْرَتْ عَمَلِيَّةَ تَفْتِيشٍ لِكَافَةِ حَاجِيَّات «چِي چِي بَان» الَّتِي تَحْتَفِظُ بِهَا فِي عِدَّةِ صَنَادِيقَ دَاخِلَ غُرْفَتِهَا الْخَاصَّةِ بِهَا.

وَصَعِقَتْ «حَزْمِيل» مِنْ هَوْلِ الْمُفَاجَأَةِ فَقَدْ عَثَرَتْ عَلَىٰ عَقْدِ زَوَاجٍ «چِي چِي بَان» وَ «عُمَر خَان». كَيْفَ حَدَثَ هَذَا؟ وَمَتَىٰ؟ وَكَيْفَ لَمْ تَشْعُرْ بِذَلِكَ وَهِيَ الْمُشْرِفَةُ عَلَىٰ حَرِيمِ الْقَصْرِ؟ وَبَعْدَ التَّفْكِيرِ الْعَمِيقِ فِي هَذَا الْأَمْرِ الْخَطِيرِ، قَرَّرَتْ الْمُشْرِفَةُ «حَزْمِيل» كِتْمَانَ هَذَا السِّرِّ لِحِينِ التَّأَكُّدِ تَمَامًا مِنْهُ.

وَبِالْفِعْلِ أَخَذَتْ الْمُشْرِفَةُ تُرَاقِبُ «چِي چِي بَان» نَهَارًا وَلَيْلاً، إِلَىٰ أَنْ تَبَيَّنَتْ حَقِيقَةَ

الْأَمْرِ وَرَأَتْ بِعَيْنِهَا فِى إِحْدَىٰ اللَّيَالِي الْفَتَاةَ «چِي چِي بَان» وَهِيَ تَلْتَقِي سِرًّا بِالْعَبْدِ «عُمَر خَان».

وَهُنَا أَسْرَعَتْ «حَزْمِيل» وَكَشَفَتْ هَذَا السِّرَّ الْخَطِيرَ لِلْأَمِيرَةِ «مَايَا» الَّتِي انْزَعَجَتْ كَثِيرًا، وَأَبْلَغَت الْأَمِيرَ «مِحْرَاز» الَّذِي دُهِشَ لِجُرْأَةِ الْعَبْدِ «عُمَر خَان» وَالْجَارِيَةِ «چِي

چِي بَان»، وَأَمرَ بِالْقَبْضِ عَلَيْهِمَا فَوْرًا وَإِيدَاعِهِمَا سِجْنَ الْقَصْرِ، كَمَا أَمَرَ بِعَقْدِ اجْتِمَاعٍ طَارِئٍ لِكِبَارِ الْقَصْرِ.

وَبِالْفِعْلِ تَمَّ اجْتِمَاعُ كِبَارِ الْقصْرِ تَحْتَ رِئَاسَةِ الْأَمِير «مِحْرَاز» وَبَعْدَ عَرْضِ أَحْدَاثِ هَذِهِ الْجَرِيمَةِ وَالتَّشَاوُرِ بَيْنَهُمْ، قَرَّرَ كِبَارُ الْقَصْرِ تَنْفِيذَ عُقُوبَةِ الْإِعْدَامِ

فِيهِمَا فَوْرًا حَسَبَ قَوَانِينِ الْقَصْرِ وَحَتَّىٰ يَكُونَ هَذَا الْحُكْمُ عِبْرَةً لِكُلٍّ مِنَ الْعَبِيدِ وَالْجَوَارِي، وَتَقَرَّرَ أَنْ يَكُونَ تَنْفِيذُ حُكْمِ الإِعْدَامِ فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي، وَيُشَاهِدُهُ كُلُّ سُكَّانِ الْقَصْرِ.

وَفِي الْمَسَاءِ ذَهَبَتْ الْجَارِيَةُ «بَنْدَرَة» - وَهِيَ فِي غَايَةِ الْحُزْنِ وَالدُّمُوعُ تَنْهَمِرُ مِنْ عَيْنَيْهَا - إِلَىٰ «فَيْرُوز» وَدُونَ أَنْ تَهْتَمَّ بِخُطُورَةِ مَا تَفْعَلُهُ، وَأَخْبَرَتْهُ بِأَمْرِ هَذَا الْحُكْمِ الْقَاسِي، وَتَأَثَّرَ «فَيْرُوز» كَثِيرًا وَبَكَىٰ صَدِيقَهُ الْعَزِيزَ «عُمَر خَان»، وَمَسَحَتْ «بَنْدَرَة» دُمُوعَهَا وَقَالَتْ لِفَيْرُوز:

- فَيْرُوز لَيْسَ الْآنَ وَقْتُ الْبُكَاءِ، وَإِنَّمَا الْآنَ وَقْتُ التَّفَكُّرِ وَالتَّدَبُّرِ.

وَمَسَحَ «فَيْرُوز» دُمُوعَهُ وَقَالَ:

- نَعَم يَا بَنْدَرَة، الْحَقُّ فِيمَا تَقُولِينَ، وَلَكِن مَاذَا سَنَفْعَلُ؟

قَالَتْ «بَنْدَرَة» بِصَوْتٍ فِيهِ الْعَزْمُ وَالتَّحَدِّي:

- لَقَدْ فَكَّرْتُ فِي خِطَّةٍ تُنْقِذُ «چِي چِي بَان» و«عُمَر خَان» مِنْ هَذَا الْمَوْتِ الْمُحَقَّقِ.

وَاتَّسَعَتْ عَيْنَا «فَيْرُوز» وَفَغَر فَاهُ، وَقَالَ فِي لَهْفَةٍ:

- خُطَّةٌ !! وَمَا هِيَ هَذِهِ الْخُطَّةُ الْعَبْقَرِيَّةُ يَا بَنْدَرة؟

أَجَابَتْ الْفَتَاةُ:

- سَأَذْهَبُ الْآنَ وَأَصْنَعُ شَرَابًا مِنَ الْفَاكِهَةِ، وَأَضَعُ فِيهِ مُخَدِّرًا قَوِيًّا، وَأُقَدِّمُهُ لِحُرَّاسِ السِّجْنِ، وَمَا أَنْ يَتِمَّ تَخْدِيرُهُم حَتَّىٰ أَحْصُلَ عَلَىٰ مَفَاتِيحِ السِّجْنِ لِأُحَرِّرَ

السَّجِينَيْنِ، أَمَّا أَنْتَ يَا فَيْرُوز فَاذْهَبْ إِلَىٰ صَاحِبِكَ «سَامرو» الَّذِي يَمْتَلِكُ الْعَدِيدَ مِنَ الْقَوَارِبِ عَلَىٰ شَطِّ الْجَزِيرَةِ، وَجَهِّزَا قَارَبًا شِراعِيًّا وَزَوِّدَاهُ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ لِيَكُونَ جَاهِزًا بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ لِيَهْرُبَا فِيهِ «چِي چِي بَان» و«عُمَر خَان».

ابْتَسَمَ «فِيرُوز» وَقَالَ:

– أَحْسَنْتِ الْخُطَّةَ يَا «بَنْدَرَة» وَرَغْمَ خُطُورَتِهَا إِلاَّ أَنَّهَا تَبْدُو الْحَلَّ الْوَحِيدَ لِهَذِهِ الْمُشْكِلَةِ الْخَطِيرَةِ.

وَبَدَأَ تَنْفِيذُ الْخُطَّةِ، فَأَسْرَعَتْ «بَنْدَرَة» إِلَىٰ الْقَصْرِ، وَأَخَذَتْ تُعِدُّ شَرَابًا لَذِيذًا مِنَ الْفَاكِهَةِ يُحِبُّهُ الْجَمِيعُ، وَأَذَابَتْ فِي هَذَا الشَّرَابِ بَعْضَ أَوْرَاقٍ لِنَبَاتٍ مُخَدِّرٍ مَعْرُوفٍ بِقُوَّةِ تَأْثِيرِهِ، وَانْتَظَرَتْ لِحِينِ يَأْتِي اللَّيْل لِتُكْمِلَ تَنْفِيذَ خُطَّتَهَا.

أَمَّا «فَيْرُوز» فَقَدْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَتَسَلَّلَ مِنَ الْقَصْرِ وَذَهَبَ إِلَىٰ شَاطِئِ الْجَزِيرَةِ حَيْثُ قَابَلَ صَدِيقُهُ «سامرو»، وَحَكَىٰ لَهُ كُلَّ شَيْءٍ، وَقَدَّمَ لَهُ بَعْضَ الْمَالِ ثَمَنًا لِإِحْدَىٰ قَوارِبِهِ، وَلَكِنْ «سامرو» رَفَضَ أَنْ يَأْخُذَ الْمَالَ، وَأَفْهَمَ صَدِيقَهُ «فَيْرُوز» بِأَنَّهُ مُتَبَرِّعٌ بِهَذَا الْقَارَبِ لِإِنْقَاذِ حَيَاةِ هَذِهِ الْفَتَاة وَزَوْجِهَا اللَّذَيْنِ لَمْ يَرْتَكِبَا أَيَّةَ جَرِيمَةٍ سِوَىٰ أَنَّهُمَا تَزَوَّجَا.

وَجَاءَ اللَّيْلُ، وَكَانَتْ الْأُمُورُ دَاخِلَ الْقَصْرِ تَسِيرُ بِصُورَةٍ عَادِيَةٍ، وَذَهَبَ الْجَمِيعُ إِلَىٰ أَمَاكِنَ نَوْمِهِمْ، إِلاَّ «بَنْدَرة» الَّتِي ظَلَّتْ تُرَاقِبُ فِي حَذَرٍ سُكَّانَ الْقَصْرِ، حَتَّىٰ اطْمَأَنَّتْ إِلَىٰ نَوْمِهِمْ جَمِيعًا، وَقَبْلَ انْتِصَافِ اللَّيْلِ ذَهَبَتْ بِشَرَابِ الْفَاكِهَةِ إِلَىٰ سِجْنِ الْقَصْرِ دُونَ أَنْ يَشْعُرَ بِهَا أَحَد، وَمَا أَنْ رَأَى حُرَّاسُ السِّجْنِ الثَّلاَثَة الْفَتَاة «بَنْدَرَة» حَتَّىٰ سَعِدُوا لِقُدُومِهَا كَثِيرًا، فَقَدْ تَعَوَّدُوا مِثْلَ هَذِهِ الزِّيَارَات اللَّيْلِيَّةِ لِبَعْضِ جَوَارِي الْقَصْرِ.

وَقَدَّمَتْ «بَنْدَرَة» إِلَىٰ الْحُرَّاسِ هَذَا الشَّرَاب اللَّذِيذ، فَشَرِبُوا جَمِيعًا مِنْهُ، وَهُمْ يُمَنُّونَ أَنْفُسَهُمْ بِقَضَاءِ لَيْلَةٍ سَعِيدَةٍ بِصُحْبَةِ الْفَتَاةِ الْجَمِيلَةِ «بَنْدَرَة»، وَهِيَ تَضْحَكُ لَهُمْ وَتَمِيلُ

فِي دَلالٍ لِتُؤَكِّدَ لَهُمْ بِالْفِعْلِ أَنَّ لَيْلَتَهُم سَتَكُونُ سَعِيدَةً وَمُدْهِشَةً.

وَأَخَذَ الْحُرَّاسُ الثَّلاثَةُ يَشْرَبُونَ مِنْ شَرَابِ الْفَتَاةِ وَهُمْ يَضْحَكُونَ وَيَمْرَحُونَ وَيُحَاوِلُونَ مُدَاعَبَةَ فَتَاتِهِم الْجَمِيلَةَ.

وَمَا هِيَ سِوَىٰ لَحَظَاتٍ حَتَّىٰ تَسَاقَطَ الْحُرَّاسُ وَاحِدًا تِلْوَ الْآخَرِ وَرَاحَ الثَّلاثَةُ فِي نَوْمٍ طَوِيلٍ وَسُبَاتٍ عَمِيق.

وَبَعْدَ أَنْ تَأَكَّدَت الْفَتَاةُ مِنْ نَوْمِ الْحُرَّاسِ، الْتَقَطَتْ مِنْ أَحَدِهِمْ مَفَاتِيحَ السِّجْنِ وَأَسْرَعَت إِلَىٰ زَنْزَانَةِ «چِي چِي بَان» وَفَتَحَتْهَا، وَزَنْزَانَة «عُمَر خَان» فَفَتَحَتْهَا، وَخَرَجَتِ الْفَتَاةُ «چِي چِي بَان» وَفَتَاهَا «عُمَر خَان» مِنَ السِّجْنِ بَصُحْبَةِ «بَنْدَرة» وَهُمَا غَيْرُ

مُصَدِّقَيْنِ أَنَّهُمَا نَالاَ حُرِّيَتَهُمَا، بَلْ نَالاَ حَيَاتَهُمَا بِمَا فَعَلَتْهُ الصَّدِيقَةُ الْمُخْلِصَةُ «بَنْدَرَة».

وَتَسَلَّلَ الثَّلاَثَةُ فِي حَذَرٍ وَتَرَقُّبٍ مِنْ مَبْنَىٰ السِّجْنِ مُتَّجِهِينَ نَاحِيَةَ الْمَكَانِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ لِلِقَاء «فَيْرُوز»، وَبِالْفِعْلِ الْتَقَىٰ بِهِمْ «فَيْرُوز» وَسَعِدَا كَثِيرًا بِنَجَاتِهِمَا، وَأَسْرَعَ الْجَمِيعُ فِي جُنْحِ الظَّلاَمِ إِلَىٰ خَارِجِ الْقَصْرِ نَاحِيَةَ شَاطِيءِ الْجَزِيرَةِ.

وَهُنَاكَ عِنْدَ الشَّاطِيءِ كَانَ فِي اسْتِقْبَالِهِمْ الصَّدِيقُ «سَامرو» الَّذِي رَحَّبَ بِهِما فِي سَعَادَةٍ وَهَنَأَهُمَا عَلَىٰ نَجَاتِهِمَا مِنْ بَطْشِ أَهْلِ الْقَصْرِ وَظُلْمِهِمْ. وَدَلَّ «سَامروا» «عُمَر خَان» و«چِي چِي بَان» عَلَىٰ مَكَانِ الْقَارِبِ الشِّرَاعِيِّ الَّذِي سَيَهْرُبَانِ بِهِ وَأَنَّهُ قَدْ جَهَّزَ هَذَا الْقَارِبَ بِكُلِّ مَا يَحْتَاجُونَهُ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ لِعِدَّةِ أَيَّامٍ.

وَفِي لَحْظَةٍ غَايَةٍ فِي التَّأَثُّرِ وَدَّعَ كُلٌّ مِنْ «عُمَر خَان» و«چِي چِي بَان» مُنْقِذِيهِمْ مِنَ الْمَوْتِ، «فَيْرُوز» و«بَنْدَرَة» و«سَامرو»، وَاخْتَلَطَتْ الدُّمُوعُ بِالابْتِسَامَاتِ، وَجَاءَتْ كَلِمَاتُ الشُّكْرِ وَالْعِرْفَانِ بِجَمِيلِ صَنِيعِهِمْ لِمَا فَعَلُوهُ مِنْ إِنْقَاذِ حَيَاتِهِمَا.

وَاسْتَقَلَّ «عُمَر خَان» و«چِي چِي بَان» الْقَارِبَ الشِّرَاعِيّ الَّذِي بَدَأَ يَتَحَرَّكُ دَاخِلَ الْبَحْرِ وَرَفَعَا أَيْدِيَهُمَا لِوَدَاعِ الْأَصْدِقَاءِ، وَالْأَيْدِي تُلَوِّحُ لَهُمَا مَعَ الْأُمْنِيَّاتِ بِأَنْ يَحْفَظَهُمَا اللهُ. وَفَرَدَ «عُمَر خَان» شِرَاعَ الْقَارِبِ الَّذِي بَدَأَ يَتَحَرَّكُ فِي الظَّلاَمِ مُبْتَعِدًا عَنِ جَزِيرَةِ «طَالوس» وَمُتَجِهًا إِلَىٰ الْمَجْهُولِ.

وَرَجَعَ كُلٌّ مِنْ «فَيْرُوز» وَ«بَنْدَرَة» إِلَىٰ الْقَصْرِ، وَمَازَالَ الظَّلاَمُ يُسْدِلُ أَسْتَارَهُ، بَعْدَ أَنْ شَكَرَا لِلصَّدِيقِ «سَامرو» حُسْنَ صَنِيعِهِ، وَبِالْفِعْلِ وَصَلاَ إِلَىٰ الْقَصْرِ وَهُمَا يَدْعُوَانِ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَلاَّ يَكْتَشِفَ أَحَدٌ أَمْرَهُمَا.

الفَصْلُ السَّابِعُ

الْمُطَارَدَةُ الْمُخِيفَةُ

سَارَعَ «عُمَر خَان» بِقَارِبِهِ الشِّرَاعِيِّ وَمَعَهُ زَوْجَتُهُ الْحَبِيبَة «چِي چِي بَان» فِي الابْتِعَادِ عَنْ جَزِيرَةِ «طَالُوس»، وَاسْتَخْدَمَ خِبْرَتَهُ فِي تَعَرُّفِ اتِّجَاهِهِ وَسْطَ ظَلاَمِ الْبَحْرِ بِالاهْتِدَاءِ بِالنُّجُومِ كَمَا عَلَّمَهُ أَبُوهُ الْبَحَّار الْخَبِير فِي الإِبْحَارِ بِالسُّفُنِ فِي ظَلاَمِ اللَّيْلِ، وَالَّذِي كَانَ دَائِمًا يُذَكِّرُهُ بِآيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي هَذَا الصَّدَدِ، وَمِنْهَا: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [سُورَةُ الأَنْعَام: آية 97]، وَمِنْهَا أَيْضًا: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ: آية 16]؛ وَلِذَا انْطَلَقَ الْقَارِبُ الشِّرَاعِيُّ فِي طَرِيقِهِ الصَّحِيحِ بِكُلِّ ثِقَةٍ مُبْتَعِدًا عَنْ جَزِيرَةِ «طَالُوس» وَخَطَرِ أَصْحَابِ الْقَصْرِ الظَّالِمِين، وَالْفَتَاةُ «چِي چِي بَان» لاَ تَكَادُ تُصَدِّقُ عَيْنَيْهَا مِنْ نَجَاتِهِمَا مِنْ مَوْتٍ مُحَقَّقٍ.

وَاسْتَمَرَّ الْحَالُ عَلَىٰ مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَالْقَارِبُ يَشُقُّ طَرِيقَهُ فِي الْبَحْرِ الْوَاسِعِ حَتَّىٰ أَشْرَقَتِ الدُّنْيَا بِنُورِ رَبِّهَا، وَسَطَعَت الشَّمْسُ مِنْ مَشْرِقِهَا، وَاطْمَأَنَّ «عُمَر خَان» أَنَّ الْأُمُورَ تَسِيرُ عَلَىٰ مَا يُرَامُ، وَأَنَّهُ قَطَعَ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرَةِ أَمْيَالٍ بَعِيدًا عَنِ الْجَزِيرَةِ، وَهُنَا أَخَذَ قِسْطًا مِنَ الرَّاحَةِ هُوَ و«چِي چِي بَان» بَعْدَ أَنْ تَنَاوَلاَ بَعْضَ الْفَاكِهَةِ، وَشَرِبَا قَلِيلاً مِنَ الْمَاءِ.

وَعَلَىٰ الْجَانِبِ الْآخَرِ فِي الْجَزِيرَةِ، اسْتَيْقَظَ أَهْلُ الْقَصْرِ مِنْ نَوْمِهِمْ، وَبَدَأَ الاسْتِعْدَاد لِمَشْهَدِ الْإِعْدَامِ لِلْعَبْدِ وَالْجَارِيَةِ اللَّذَيْنِ خَالَفَا قَانُونَ الْقَصْرِ فَحَقَّ عَلَيْهِمَا الْعِقَابُ بِالْمَوْتِ.

وَكَانَتْ الْـمُفَاجَأَةُ الْـمُذْهِلَةُ عِنْدَ اكْتِشَافِ حُرَّاسِ السَّجْنِ وَهُمْ يَرْقُدُونَ عَلَىٰ الْأَرْضِ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ، وَأَنَّ الْعَبْدَ وَالْجَارِيَةَ قَدْ فَرَّا مِنْ سِجْنِهِمَا، وَانْتَشَرَ الْخَبَرُ كَالنَّارِ فِي الْهَشِيمِ، وَعَرَفَ الْجَمِيعُ بِالْخَبَرِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ مَثِيلٌ مِنْ قَبْلُ، وَصَرَخَ الْأَمِيرُ «مِحْرَاز» مِنْ هَوْلِ الْخَبَرِ، وَأَمَرَ بِاجْتِمَاعٍ عَاجِلٍ لِكِبَارِ الْقَصْرِ وَأَمَرَهُم بِالتَّحْقِيقِ الْفَوْرِي لِمَا حَدَثَ، وَإِلْقَاءِ الْقَبْضِ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ يُشْتَبَهُ فِيهِ أَنَّهُ عَاوَنَ الْمُجْرِمَانِ عَلَىٰ الْفِرَارِ، كَمَا أَمَرَ بِالْبَحْثِ فَوْرًا عِنِ الْهَارِبَيْنِ فِي جَنَبَاتِ الْقَصْرِ، بَلْ فِي أَرْجَاءِ الْجَزِيرَةِ، وَإِحْضَارِهِمَا أَحْيَاءً أَوْ أَمْوَاتًا.

وَلَكِنَّ الْبَحْثَ فِي الْقَصْرِ، أَوْ فِي الْجَزِيرَةِ لَمْ يُسْفِرْ عَنْ أَيَّةِ نَتِيجَةٍ، بَيْنَمَا تَوَصَّلَ كِبَارُ الْقَصْرِ وَمُعَاوِنُوهُمْ بَعْدَ التَّحْقِيقِ مَعَ أَكْثَرِ مِنْ خَمْسِينَ فَرْدًا، وَمِنْهُمْ حُرَّاسُ السَّجْنِ الثَّلَاثَةِ بَعْدَ أَنْ أَفَاقُوا مِنْ نَوْمِهِم، أَنَّ الْعَبْدَ «عُمَرُ خَان» وَالْجَارِيَةِ «چِي چِي بَان» قَدْ هَرَبَا بِالْفِعْلِ عِنْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ بِقَارِبِ شِرَاعِيٍّ، وَأَنَّ الْعَبْدَ «فَيْرُوز» وَالْجَارِيَةَ «بَنْدَرَة» قَدْ قَامَا بِالدَّوْرِ الْأَسَاسِيِّ فِي عَمَلِيَّةِ التَّهْرِيبِ تِلْكَ، فَأَصْدَرَ الْأَمِيرُ «مِحْرَاز» وَهُوَ فِي قِمَّةِ غَضَبِهِ حُكْمَ الْإِعْدَامِ عَلَىٰ «فَيْرُوز» وَ«بَنْدَرَة»، كَمَا أَصْدَرَ حُكْمُهُ بِالسِّجْنِ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ عَلَىٰ حُرَّاسِ السِّجْنِ الثَّلَاثَةِ لِإِهْمَالِهِمْ الشَّدِيدِ فِي تَأْدِيَةِ وَاجِبِهِم فِي حِرَاسَةِ مَنْ كَانَا بِالسِّجْنِ.

كَمَا أَمَرَ الْأَمِيرُ «مِحْرَاز» بِتَجْهِيزِ سَفِينَةِ الْقَصْرِ الضَّخْمَةِ وَالَّتِي سُمِّيَتْ عَلَىٰ اسْمِ الْجَزِيرَةِ «سَفِينَةُ طَالُوس» بِكُلِّ مَا يَلْزَمُ مِنْ جُنُودٍ وَبَحَّارَةٍ وَأَسْلِحَةٍ وَمُؤَنٍ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ، لِمُطَارَدَةِ الْقَارِبِ الشِّرَاعِيِّ الَّذِي يَسْتَقِلُّهُ الْهَارِبَانِ، وَأَعْلَنَ أَنَّهُ سَيَقُودُ بِنَفْسِهِ هَذِهِ الْمُطَارَدَةَ، فَهُوَ لَنْ يَهْدَأَ لَهُ بَالٌ حَتَّىٰ يَتِمَّ الْقَبْضُ عَلَىٰ الْعَبْدِ «عُمَر خَان» وَالْجَارِيَةِ «چِي چِي بَان» وَيُنَفَّذَ فِيهِمَا حُكْمَ الْإِعْدَامِ.

وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي تَمَّ تَنْفِيذُ حُكْمِ الْإِعْدَامِ فِي كُلٍّ مِنَ الْعَبْدِ «فَيْرُوز» وَالْجَارِيَةِ «بَنْدَرة»، وَعَلَىٰ الْفَوْرِ اسْتَقَلَ الْأَمِيرُ «مِحْرَاز» مَعَ جُنُودِهِ وَبَحَّارِيه «سَفِينَةَ طَالُوس» الَّتِي بَدَأَتْ تَشُقُّ طَرِيقَهَا فِي الْبَحْرِ بِسُرْعَةٍ غَيْرِ عَادِيَّةٍ مِنْ أَجْلِ اللِّحَاقِ بِالْقَارِبِ الشِّرَاعِيِّ الْهَارِب، وَكَانَ قَدْ مَضَىٰ عَلَىٰ إِبْحَارِهِ مِنَ الْجَزِيرَةِ حَوَالَيْ يَوْمًا وَنِصْفَ الْيَوْمِ قَطَعَ خِلاَلَهَا حَوَالَيْ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسٍ وَثَلاَثِينَ مِيلاً، وَلَمْ يَكُنْ يَدُورُ فِي ذِهْنِ «عُمَر خَان» أَنَّ قَارَبَهُ مُسْتَهْدَفٌ مِنْ قِبَلِ «السَّفِينَةِ طَالُوس» وَعَلَىٰ مَتْنِهَا الْأَمِيرُ «مِحْرَاز» وَجُنُودُهُ، وَظَنَّ أَنَّهُ بِالْفِعْلِ قَدْ نَجَا تَمَامًا هُوَ وَ «چِي چِي بَان» مِنْ سُلْطَةِ وَقَهْرِ الْقَصْرِ وَأَمِيرِهِ.

وَمَرَّ يَوْمٌ ثَالِثٌ و«عُمَر خَان» يَأْمُلُ أَنْ يَعْثُرَ عَلَىٰ بَلْدَةٍ سَاحِلِيَّةٍ، أَوْ جَزِيرَةٍ يَرْسُو عَلَيْهَا وَخَاصَّةً أَنَّ الطَّعَامَ وَالْمَاءَ فِي الْقَارِبِ الشِّرَاعِيِّ فِي تَنَاقُصٍ مُسْتَمِرٍّ مِمَّا دَفَعَ «عُمَر خَان» بِخِبْرَتِهِ الْبَحَرِيَّةِ أَنْ يَقُومَ بِاصْطِيَادِ بَعْضِ أَسْمَاكِ الْبَحْرِ بِوَاسِطَةِ حَرْبَةٍ كَانَتْ تُوجَدُ بِالْقَارَبِ، ثُمَّ يَتِمُّ تَنْظِيفُ هَذِهِ الْأَسْمَاكِ وَتَمْلِيحُهَا ثُمَّ عَرْضُهَا بَعْضَ الْوَقْتِ لِأَشَعَةِ الشَّمْسِ.

وَجَاءَ الْيَوْمُ الرَّابِعُ، وَكَانَ الْقَارِبُ قَدْ قَطَعَ أَكْثَرَ مِنْ سِتِّينَ مِيلاً فِي الْبَحْرِ، وَلَمْ يَظْهَرْ فِي الْأُفُقِ أَيَّةُ أَرْضٍ فِي هَذَا الْبَحْرِ الْوَاسِعِ الْكَبِيرِ، وَحَاوَلَ «عُمَر خَان» الْعَدِيدَ مِنَ الْمَرَّاتِ اسْتِخْدَامَ مِنْظَارٍ مُقَرِّبٍ «تِلِيسْكُوب» أَنْ يَكْتَشِفَ يَابِسَةً، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَرَ شَيْئًا سِوَىٰ مِيَاهَ الْبَحْرِ حَتَّىٰ بَدَأَ الْيَأْسُ يَدُبُّ فِي قَلْبِ «چِي چِي بَان» الَّتِي بَدَا عَلَيْهَا الْهُزَال وَالضَّعْفُ.

وَفِي أَثْنَاءِ إِحْدَىٰ مُحَاوَلاَتِ «عُمَر خَان» فِي الْكَشْفِ بِمِنْظَارِهِ الْمُقَرِّبِ، صَاحَ صَيْحَةَ فَرَحٍ قَائِلاً:

- أَرْض ... هَا هِي أَرْضٌ يَا حَبِيبَتِي «چِي چِي بَان» لَقَدْ نَجَوْنَا.

وَقَفَتْ الْفَتَاةُ فِي فَرَحٍ وَسُرُورٍ بَعْدَ أَنْ كَادَ الْيَأْسُ يَقْضِي عَلَيْهَا، وَهِي تَضَعُ يَدَيْهَا عَلَىٰ عَيْنِهَا وَقَالَتْ:

– أَرْض ... أَيْنَ هِي تِلْكَ الْأَرْضُ يَا «عُمَر خَان»؟ إِنَّنِي لاَ أَرَىٰ شَيْئًا.

فَقَالَ لَهَا «عُمَر خَان» وَمَا زَالَتْ الْفَرْحَةُ تُزَيِّنُ وَجْهَهُ الْجَمِيلُ:

– هَا هِيَ يَا چِي چِي ... إِنِّي أَرَاهَا بِوَاسِطَةِ الْمِنْظَارِ، خُذِي هَذَا الْمِنْظَار وِشَاهِدِي هَذِهِ الْأَرْض بِعَيْنَيْكِ.

وَبِالْفِعْلِ نَظَرَتْ «چِي چِي بَان» مِنْ خِلاَلِ الْمِنْظَارِ فَوَجَدَتْ عَنْ بُعْدٍ هَذِهِ الْأَرْضَ، فَقَالَتْ وَهِي مَا تَزَالُ تَنْظُرُ بِالْمِنْظَارِ:

– نَعَمْ ... نَعَمْ إِنِّي أَرَاهَا، وَلَكِنَّهَا بَعِيدَةٌ، يَا تُرَىٰ كَمْ نَبْعُدُ عَنْهَا يَا عُمَر خان؟

أَجَابَ الْفَتَىٰ:

– حَوَالَيْ خَمْسَةَ أَوْ سِتَّةَ أَمْيَالٍ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقْطَعَهَا فِي زَمَنٍ قَلِيلٍ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَىٰ.

وَعِنْدَمَا أَدَارَتْ «چِي چِي بَان» رَأْسَهَا بِالْمِنْظَارِ إِلَىٰ النَّاحِيَةِ الْمُعَاكِسَةِ لِنَاحِيَةِ الْأَرْضِ صَاحَتْ فِي فَرْحَةٍ:

– عُمَر خَان ... هَا هِيَ سَفِينَةٌ كَبِيرَةٌ أَرَاهَا بُوُضُوحٍ بِوَاسِطَةِ الْمِنْظَارِ.

أَخَذَ الْفَتَىٰ الْمِنْظَارَ لِيُشَاهِدَ السَّفِينَةَ فَوَجَدَهَا بِالْفِعْلِ، فَقَال وَهُوَ يَبْتَسِمُ:

- الْحَمْدُ لِلَّهِ ... لَقَدْ كَتَبَ اللهُ تَعَالَىٰ لَنَا النَّجَاةَ يَا حَبِيبَتِي «چِي چِي» حَيْثُ يُمْكِنُ أَنْ نَسْتَقِلَّ هَذِهِ السَّفِينَةَ وَأَظُنُّهَا سَفِينَةٌ تُجَارِيَّةٌ، وَنَذْهَبُ مَعَهُمْ إِلَىٰ حَيْثُ يَذْهَبُونَ ثُمَّ نُدَبِّرُ أَمْرَنَا لِلْعَوْدَةِ إِلَىٰ بَلَدِنَا الْحَبِيب، حَيْثُ أُمِّي وَأَبِي وَأَهْلِي وَعَشِيرَتِي.

تَمْتَمَتْ «چِي چِي بَان» قَائِلَةً:

- بِإِذْنِ اللهِ يَا حَبِيبِي ... بِإِذْنِ الله ...

وَفِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ السَّفِينَةُ سِوَىٰ «سَفِينَةِ طَالُوس» الَّتِي تَبْحَثُ عَنْهُمَا، وَعَلَيْهَا الْأَمِيرُ «مِحْرَاز» وَجُنُودُه، حَيْثُ كَانَ الْأَمِيرُ فِي هَذِهِ اللَّحَظَات نَائِمًا، وَاسْتَيْقَظَ مُنْدَهِشًا عَلَىٰ صِيَاح البَّحَار الَّذِي يَقِفُ أَعْلَىٰ سَارِيَةِ السَّفِينَة وَهُوَ مُمْسِكٌ بِمِنْظَارِهِ الْمُقَرِّب لِيُشَاهِدَ الْقَارِب الشِّرَاعِيّ عَنْ بُعْد وَهُوَ يَصْرُخُ:

- وَجَدْنَاهُمْ ... وَجَدْنَاهُمْ، هَا هُوَ الْقَارِبُ الشِّرَاعِيُّ، هَا هُوَ مَا نُرِيدُ اللِّحَاقَ بِهِ.

وَأَسْرَعَ الْأَمِيرُ وَهُوَ غَيْرُ مُصَدِّقٍ مَا يَسْمَعُهُ إِلَىٰ سَطْحِ السَّفِينَةِ وَأَمْسَكَ الْمِنْظَارَ الْمُقَرِّبَ الْخَاصَّ بِهِ، وَنَظَرَ مِنْ خِلَالِهِ فَشَاهَدَ عَنْ بُعْد الْقَارِبَ الشِّرَاعِيَ فَضَحِكَ ضَحِكَاتٍ هِسْتِيرِيَّة وَهُوَ يَصْرُخُ وَيَقُولُ:

- أَخِيرًا وَقَعْتُمَا فِي يَدِي أَيَّتُهَا الْفِئْرَان الْهَارِبَة، مَاذَا كُنْتُم تَظُنُّونَ؟ أَتُفْلِتُونَ مِنِّي ... لاَ ... سَأَجْعَلُكُمَا عِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِرَ، وَسَيَكُونَ إِعْدَامُكُمَا بِطَرِيقَةٍ لاَ مَثِيلَ لَهَا، سَيَكُونُ إِعْدَامُكُمَا بِإِلْقَائِكُمَا لِلْأُسُودِ الْمُفْتَرِسَةِ الْجَائِعَة، وَلَنْ يَرْحَمَكُمَا مِنِّي أَحَد.

ثُمَّ نَادَىٰ:

- يَا رُبَّان السَّفِينَةِ ...

أَجَابَ الرُّبَانُ فَوْرًا:

- لَبَّيْكَ سَيِّدِي الْأَمِير ...

صَاحَ الْأَمِيرُ:

- زِدْ فِي سُرْعَةِ السَّفِينَةِ نَاحِيَةَ هَذَا الْقَارَبِ الشِّرَاعِيِّ اللَّعِين ...

رَدَّ الرُّبَّانُ:

- أَمْرُكَ يَا سَيِّدِي الْأَمِير ...

وَأَعْطَىٰ الرُّبَّانَ الْأَمْرَ لِبَحَّارَةِ السَّفِينَةِ بِزِيَادَةِ سُرْعَتِهَا فِي اتِّجَاهِ الْقَارَبِ الشِّرَاعِيِّ.

وَعِنْدَمَا تَابَعَ «عُمَرُ خَان» مِنْ خِلالِ مِنْظَارِهِ الْمُقَرِّب السَّفِينة، وَجَدَهَا تُغَيِّرُ وِجْهَتِهَا وَتُسْرِعُ نَاحِيَتِهُمَا، فَأَبْدَىٰ دَهْشَةً لِذَلِكَ، وَمَا أَنْ دَقَّقَ النَّظَرَ فِي تِلْكَ السَّفِيْنَة الْمُقْبِلَةِ عَلَيْهِمَا مُسْرِعَةً حَتَّىٰ صَاحَ بِفَزَعٍ:

– چِي چِي بَان ... هَذِهِ لَيْسَتْ سَفِينَةً تِجَارِيَّةً تَمُرُّ مُرُورًا عَابِرًا، إِنَّهَا «سَفِينَة طَالُوس» الْخَاصَّة بِقَصْرِ الْأَمِيرِ «مِحْرَاز»، فَأَنَا أَعْرِفُهَا جَيِّدًا.

وَهُنَا صَرَخَتْ الْفَتَاةُ مِنَ الرُّعْبِ وَقَالَتْ:

– سَفِينَةُ طَالُوس ... هَذِهِ هِيَ نِهَايَتُنَا يَا عُمَرُ خَان.

رَدَّ الشَّابُّ وَهُوَ مَازَالَ يَنْظُرُ إِلَىٰ السَّفِينَةِ بِمِنْظَارِهِ الْمُقَرِّب قَائِلاً:

– لَقَدْ خَرَجُوا لِيَبْحَثُوا عَنَّا بِهَذِهِ السَّفِينَةِ الضَّخْمَةِ، وَلَعَلَّهُم أَجْبَرُوا «فَيْرُوز» وَ«بَنْدَرة» عَلَىٰ الاعْتِرَافِ بِهُرُوبِنَا بِالْقَارِبِ الشِّرَاعِيّ، وَهَا هُمْ قَدْ نَجَحُوا فِي بَحْثِهِمْ.

وَتَسَاءَلَتْ «چِي چِي بَان» وَقَدْ أَخَذَ مِنْهَا الرُّعْبُ مَا أَخَذَ:

– وَمَاذَا سَنَفْعَلُ الْآنَ يَا عُمَر خَان؟

أَجَابَ الشَّابُّ وَهُوَ فِي حَالَةِ تَوَتُّرٍ وَقَلَقٍ شَدِيدَيْنِ.

– سَأُحَاوِلُ أَنْ أَزِيدَ مِنْ سُرْعَةِ الْقَارِبِ الشِّرَاعِيِّ لَعَلَّنَا نَصِلُ إِلَىٰ هَذِهِ الْأَرْضِ الْبَعِيدَةِ قَبْلَ أَنْ يَلْحَقُوا بِنَا.

وَحَاوَلَ «عُمَرُ خَان» تَحْرِيكَ شِرَاعِ الْقَارَبِ لِزِيَادَةِ سُرْعَتِهِ نَاحِيَةَ الْأَرْضِ الْبَعِيدَةِ، وَلَكِنْ دُونَ جَدْوَىٰ، فَهُنَاكَ فَرْقٌ كَبِيرٌ بَيْنَ سُرْعَةِ الْقَارَبِ الصَّغِيرِ وَسُرْعَةِ السَّفِينَةِ الضَّخْمَةِ الْمُقْبِلَةِ عَلَيْهِمْ، فَلاَ وَجْهَ مُقَارَنَةٍ بَيْنَ السُّرْعَتَيْنِ.

وَاقْتَرَبَت السَّفِينَةُ مِنَ الْقَارَبِ لِدَرَجَةِ أَنَّ «عُمَرَ خان» اسْتَطَاعَ أَنْ يُمَيِّزَ الرَّجُلَ الَّذِي يَقِفُ فِي مُقَدِّمَةِ السَّفِينَةِ بِأَنَّهُ الْأَمِيرُ «مِحْرَاز» بِنَفْسِهِ.

وَعَلَىٰ الْجَانِبِ الْآخَرِ شَاهَدَ الْأَمِيرُ «مَحْرَاز» بِمِنْظَارِهِ «عُمَر خَان» و«چِي چِي

بَان»، فَاسْتَمَرَّ فِي ضَحِكَاتِهِ الْهِسْتِيرِيَّةِ وَهُوَ يُرَدِّدُ بِلَهْجَةٍ انْتِقَامِيَّةٍ:

– لَنْ تُفْلِتَا مِنْ يَدَيَّ أَبَدًا، وَلَنْ يَرْحَمَكُمَا أَحَدٌ مِنَ الْإِعْدَامِ بِأَنْيَابِ الْأُسُودِ الْمُفْتَرِسَةِ الْجَائِعَةِ.

وَعِنْدَمَا أَدْرَكَ «عُمَر خَان» أَنَّ مُحَاوَلَةَ الْإِفْلَاتِ مِنَ الْأَمِيرِ «مِحْرَاز» وَجُنُودِهِ بَاتَتْ مُسْتَحِيلَةً، رَفَعَ الشَّابُّ الْمُؤْمِنُ يَدَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ وَدَعَا رَبَّهُ فِي إِخْلَاصٍ وَيَقِينٍ قَائِلاً:

– إِلَهِي ... يَا رَبَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ ... يَا مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ، يَا مَنْ يَكْرَهُ الظُّلْمَ وَالظَّالِمِينَ ... عَلَيْكَ بِهَذَا الطَّاغِيَةِ وَجُنُودِهِ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِهَذَا الطَّاغِيَةِ وَجُنُودِهِ، اللَّهُمَّ أَهْلِكْهُمْ ... اللَّهُمَ أَهْلِكْهُمْ ... إِلَهِي يَا مَنْ أَنْقَذْتَ نَبِيَّكَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامَ مِنْ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ فَأَغْرَقْتَ الطَّاغِيَةَ وَجُنُودَهِ اللَّهُمَّ أَنْقِذْنَا مِنَ الطَّاغِيَةِ «مِحْرَاز» وَجُنُدِهِ وَأَغْرِقْهُم فِي هَذَا الْبَحْر، فَإِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ، اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ، اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ، اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ وَتَسَاقَطَتِ الدُّمُوعُ مِنْ عَيْنَيّ «عُمَرُ خَان» وَهُوَ يَدْعُو رَبَّهُ مُخْلِصًا.

وَمَا أَنْ انْتَهَىٰ الشَّابُّ مِنْ دُعَائِهِ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، حَتَّىٰ حَدَثَتْ الْمُعْجِزَةُ، حَيْثُ ظَهَرَ فِي الْأُفُقِ وَعَنْ بُعْدٍ حُوتٍ عِمْلَاقٌ مِنْ فَصِيلَةِ الْحِيتَانِ الزَّرْقَاء، وَهِي مِنْ أَضْخَمِ الْحِيتَانِ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ، وَإِذَا بِهَذَا الْحُوتِ يَنْطَلِقُ فِي سُرْعَةٍ خَاطِفَةٍ نَاحِيَةَ «السَّفِينَةِ طَالُوس»، وَ«عُمَر خَان» و«چِي چِي بَان» يُشَاهِدَانِ هَذِهِ الْمُعْجِزَةِ الرَّبَّانِيَّة..

وَمَا أَنْ وَصَلَ الْحُوتُ الضَّخْمُ بِسُرْعَتِهِ الْمُذْهِلَةِ إِلَىٰ جِسْمِ السَّفِينَةِ حَتَّىٰ اصْطَدَمَ

بِهَا صَدْمَةً مَهُولَةً سُمِعَ لَهَا صَوْتٌ مُدَوٍّ، فَانْشَطَرَتْ السَّفِينَةُ عَلَىٰ الْفَوْرِ إِلَىٰ نِصْفَيْنِ وَمَا هِيَ سِوَى دَقَائِقَ مَعْدُودَةٍ حَتَّىٰ غَرَقَتْ بِمَنْ فِيهَا، وَاخْتَفَتْ تَمَامًا تَحْتَ سَطْحِ الْبَحْرِ وَاسْتَقَرَّتْ فِي قَاعِهِ.

أَمَّا الْحُوتُ فَكَأَنَّهُ قَدْ كُلِّفَ بِمُهِمَّةٍ رَبَّانِيَّةٍ أَتَمَّها عَلَىٰ أَحْسَنِ وَجْهٍ ثُمَّ عَادَ مِنْ حَيْثُ أَتَىٰ وَبَكَتْ «چِي چِي بَان» بُكَاءً حَارًّا مِنْ هَوْلِ مَا رَأَتْ، وَهِيَ لاَ تَدْرِي أَهُوَ وَاقِعٌ وَحَقِيقَةٌ أَمْ هُوَ وَهْمٌ وَخَيَالٌ؟!! أَمَّا الشَّابُّ الْمُؤْمِنُ «عُمَر خَان» فَقَدْ سَجَدَ بَاكِيًا لِلّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَخَذَ يُنَاجِيهِ قَائِلاً: الْحَمْدُ لِلَّهِ ... الْحَمْدُ لِلَّهِ أَحْمَدُكَ يَا رَبِّي وَأَشْكُرُكَ، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ ... الْحَمْدُ لِلَّهِ ... الْحَمْدُ لِلَّهِ ...

الفَصْلُ الثَّامِن

جَزِيرَةُ الْأَحْلَامِ

بَعْدَ فَتْرَةٍ لَيْسَتْ بِقَصِيرَةٍ مِنْ غَرَقِ «السَّفِينَةِ طَالُوس»، قَامَ «عُمَر خَان» مُتَمَالِكًا نَفْسَهُ وَأَخَذَ فِي تَوْجِيهِ قَارَبِهِ الشِّرَاعِيّ نَاحِيَةَ الْأَرْضِ الَّتِي رَآهَا بِالْمِنْظَارِ الْمُقَرِّبِ.

وَمَا هِيَ سِوَىٰ سَاعَاتٍ قَلِيلَةٍ حَتَّىٰ وَصَلَ الْقَارَبُ إِلَىٰ هَذِهِ الْأَرْضِ، فَإِذَا بِهَا جَزِيرَةٌ فِي وَسَطِ الْبَحْرِ، يُزَيِّنُ سَاحِلَهَا أَشْجَارُ «جَوْزِ الْهِنْدِ»، وَدَاخِلَ الْجَزِيرَةِ أَشْجَارُ فَاكِهَةٍ مُتَنَوِّعَةٍ وَجَدَاوِلُ مِيَاهٍ عَذْبَةٍ، وَطُيُورٌ وَحَيَوَانَاتٌ وَزَوَاحِفُ ذَاتُ أَحْجَامٍ وَأَشْكَالٍ وَأَلْوَانٍ مُخْتَلِفَةٍ وَهُنَاكَ أَشْجَارُ أَزْهَارٍ وَرَيَاحِينُ بَدِيعَةُ الْأَلْوَانِ وَالرَّوَائِحِ، وَكَأَنَّ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ «جَنَّةُ اللهِ فِي أَرْضِهِ».

وَفِي ظِلِّ أَوَّلِ شَجَرَةٍ كَبِيرَةٍ مُورِقَةٍ أَلْقَىٰ كُلٌّ مِنْ «عُمَر خَان» و«چِي چِي بَان» جَسَدَهُمَا وَرَاحَا فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ مِنْ عَنَاءِ الْإِجْهَادِ الْبَدَنِي وَالنَّفْسِيّ لِرِحْلَةِ الْهُرُوبِ تِلْكَ الَّتِي اسْتَغْرَقَتْ عِدَّةَ أَيَّامٍ، وَلَكِنَّهَا انْتَهَتْ بِسَلَامٍ.

وَلَمْ يَدْرِ كُلٌّ مِنَ الشَّابِّ وَفَتَاتِهِ كَمْ سَاعَةً ظَلاَ نَائِمَيْنِ، فَقَدْ تَكُونُ سَاعَاتٍ طَوِيلَةً، أَوْ يَوْمًا بِأَكْمَلِهِ، أَوْ رُبَّمَا يَوْمَانِ.

وَفِي الصَّبَاحِ قَامَا مِنْ نَوْمِهِمَا وَهُمَا فِي غَايَةِ النَّشَاطِ وَالسَّعَادَةِ وَالْإِحْسَاسِ بِالْحُرِّيَّةِ وَكَانَ الْجُوعُ قَدْ أَخَذَ مِنْهُمَا مَا أَخَذَ، فَقَامَا فِي مُحَاوَلَةٍ لِاكْتِشَافِ أَسْرَارِ تِلْكَ الْجَزِيرَةِ،

لَعَلَّهُمَا يَجِدَانِ أَحَدًا مِنَ الْبَشَرِ يَسْكُنُ فِيهَا، وَلِيَكْتَشِفَا أَيْضًا مَصَادِرَ الْغِذَاءِ وَالمَاءِ فِيهَا.

وَبَعْدَ عِدَّةِ سَاعَاتٍ مِنَ الْبَحْثِ فِيمَا تَحْوِيهِ هَذِهِ الْجَزِيرَةُ اكْتَشَفُوا مَا يَلِي:

- لاَ يُوجَدُ أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ.
- هُنَاكَ الْكَثِيرُ مِنْ أَشْجَارِ الْفَاكِهَةِ الْمُثْمِرَةِ مِثْلَ أَشْجَارِ: الْمَانْجُو وَالتُّفَّاحِ وَالْمَوْزِ والْبُرْتُقَالِ وَالْبَرْقُوقِ، عِلاَوَةً عَلَىٰ أَشْجَارِ جَوْزِ الْهِنْدِ.
- هُنَاكَ الْعَدِيدُ مِنْ جَدَاوِلِ الْمِيَاهِ الْعَذْبَةِ مَصْدَرُهَا عِدَّةُ عُيُونِ مِيَاهٍ طَبِيعِيَّةٍ فِي أَمَاكِنَ مُتَفَرِّقَةٍ مِنَ الْجَزِيرَةِ.
- تُوجَدُ بِالْجَزِيرَةِ أَنْوَاعٌ مُخْتَلِفَةٌ مِنَ الطُّيُورِ الْبَرِّيَّةِ مِثْلَ: الدَّجَاجِ الْبَرِّي، وَالْحَمَامِ واليَمَامِ، والنَّعَامِ، وَالأَوِزِّ، عِلاَوَةً عَلَىٰ وُجُودِ عِدَّةِ طُيُورٍ جَارِحَةٍ مِثْلِ: الصُّقُورِ وَالْبُومِ، كَمَا تُوجَدُ بَعْضُ الْحَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ مِثْلِ: الْأَرَانِب، وَالْمَاعِزِ، وَالْقُرُودِ، والثَّعَالِبِ.
- كَذَلِكَ لُوحِظَ وُجُودُ بَعْضِ الزَّوَاحِف مِثْلِ: الثَّعَابِين، وَالسَّلاَحِف، وَالْحَرْبَاء.

وَاطْمَأَنَّ كُلٌّ مِنْ «عُمَر خَان» و«چِي چِي بَان» بِأَنَّ الْجَزِيرَةَ آمِنَةٌ، وَتَتَضَمَّنَ كُلَّ سُبُلِ الْحَيَاةِ، والْأَمَانِ، وَالْمَأْكَلِ وَالْمَشْرَبِ، وَالاحْتِيَاجَاتِ الْمَعِيشِيَّةِ.

وَأَوَّلُ مَا فَكَّرَا فِيهِ هُوَ إِقَامَةُ مَسْكَنٍ مُنَاسِبٍ وَاسِعٍ وَمُرِيحٍ وَآمِنٍ مِنْ زَوَاحِفِ الْجَزِيرَةِ وَحَيَوَانَاتِهَا. وَلِذَا فَهُمَا فِي حَاجَةٍ إِلَىٰ أَدَوَاتِ نِجَارَةٍ، وَأَقْمِشَةٍ شِرَاعِيَّةٍ قَوِيَّةٍ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُسَاعِدُ عَلَىٰ إِقَامَةِ هَذَا الْمَسْكَنِ.

وَأَشَارَتْ «چِي چِي بَان» عَلَىٰ «عُمَر خَان» بِفِكْرَةٍ مُؤَدَّاهَا أَنَّ «السَّفِينَةَ طَالُوس» قَدْ غَرِقَتْ قَرِيبًا إِلَىٰ حَدٍّ مَّا مِنَ الْجَزِيرَةِ، فَيُمْكِنُ الذِّهَابُ إِلَىٰ مَكَانِهَا وَمُحَاوَلَةُ الْغَوْصِ فِي الْبَحْرِ لاسْتِخْرَاجِ كُلِّ مَا هُوَ نَافِعٌ فِي حَيَاتِهِمَا الْجَدِيدَةِ.

وسَعِدَ «عُمَر خَان» بِهَذِهِ الْفِكْرَةِ الْمُبْدِعَةِ، وَذَهَبَ بِالْقَارِبِ الشِّرَاعِيِّ وَمَعَهُ «چِي چِي بَان» وَتَمَّ تَحْدِيدُ مَكَانِ غَرَقِ السَّفِينَةِ، وَقَامَ بِالْغَوْصِ فِي مَهَارَةٍ عَالِيَةٍ فِي أَعْمَاقِ الْبَحْرِ وَمَعَهُ طَرَفُ حَبْلٍ طَوِيلٍ مُثَبَّتٍ طَرَفُهُ الْآخَر فِي الْقَارِبِ الشِّرَاعِيِّ، وَكُلَّ مَا يَجِدُ مِما هُوَ نَافِعٌ فِي السَّفِينَةِ الْغَارِقَةِ يَرْبِطُهُ بِطَرَفِ الْحَبْلِ الطَّوِيلِ، وَتَقُومُ «چِي چِي بَان» بِجَذْبِ الْحَبْل نَاحِيَةَ الْقَارِبِ الشِّرَاعِيّ وَتَسْتَخْرِجُ مَا تَمَّ رَبْطُهُ فِي هَذَا الْحَبْل، وَيَصْعَدُ «عُمر خَان» إِلَىٰ سَطْحِ الْبَحْرِ لِيَتَنَفَّسَ الْهَوَاءَ وَلِيَسْتَرِيحَ بَعْضَ الشَّيْءِ ثُمَّ يُعَاوِدُ الْغَوْصَ فِي أَعْمَاقِ الْبَحْرِ مَرَّةً أُخْرَىٰ، وَلِيَتَكَرَّرَ الْعَمَلُ حَتَّىٰ

يَمْتَلِيءَ الْقَارِبُ الشِّرَاعِيُّ بِكُلِّ مَا هُوَ مُفِيدٌ، فَيَعُودَا إِلَىٰ الْجَزِيرَةِ، وَيَتِمُّ تَفْرِيغُ الْقَارِبِ الشِّرَاعِيِّ مِمَّا احْتَوَاهُ ثُمَّ يَتَكَرَّرُ ذَلِكَ فِي رَحَلاَتٍ مَكُّوكِيَّةٍ بَلَغَتْ أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ رِحْلَةٍ عَلَىٰ مَدَىٰ عِشْرِينَ يَوْمًا، وَقَدْ تَمَّ اسْتِخْرَاجُ كَمِّيَّاتٍ هَائِلَةٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمُتَنَوِّعَةِ مِنَ «السَّفِينَةِ طَالُوس» كَانَ مِنْ أَهَمِّهَا:

- أَدَوَاتُ نِجَارَةٍ، وَأَسْلِحَةٌ حَدِيدِيَّةٌ، مثل: سُيُوف وخَنَاجِر وَحِرَاب وَسِهَام.
- صَنَادِيقُ خَشَبِيَّةٌ بِهَا مَلاَبِسُ مُتَنَوِّعَةٌ.

- أَشْرِعَةٌ قُمَاشِيَّةٌ قَوِيّة وَكَبِيرَة.
- حِبَالٌ ذَاتُ أَطْوَال مُتَنَوِّعَة، وَسُمْكٍ مُخْتَلِفٍ.
- صَنَادِيقٌ بِهَا أَطْعِمَةٌ مُجَفَّفَةٌ، وَأَكْيَاسٌ بِهَا بُذُورٌ صَالِحَةٌ لِلزِّرَاعَة.
- عُلَبٌ تَحْتَوِي عَلَىٰ أَدَوَاتِ حِيَاكَةٍ مِثْلَ الإِبرِ الْمَعْدَنِيَّةِ وَالْخُيُوط المُلَوَّنَةِ وَمِقَصَّات.
- سَاعَةٌ رَمْلِيَّةٌ لِمَعْرِفَةِ الْوَقْتِ.
- آلَةٌ حَدِيدِيَّة تَقُومُ بِتَوْلِيد شَرَارَة حَرَارِيَّة لَلْحُصُولِ عَلَىٰ مَصْدَرٍ لِلنِّيرَانِ.
- أَدَوَاتُ طَهْيٍ نُحَاسِيَّةٌ، مِثل: الْأَوَانِي، وَالْأَطْبَاق، وَالْأَكْوَاب وَغَيْرِها.

وَتَمَّ اخْتِيَارُ مَكَانٍ وَاسِعٍ وَفَسِيحٍ وَقَرِيبٍ مِنْ شَاطِيءِ الْجَزِيرَةِ لإِقَامَةِ مَسْكَنٍ مُنَاسِبٍ مِنْ خَشَبِ الْأَشْجَارِ وَأَفْرُعِهَا، وَأَنْ يُقِيمَا حَوْلَهُ حَدِيقَةً مَلِيئَةً بِالْأَزْهَارِ وَالرَّيَاحِين وَبِحَيْثُ أَنْ يَتَكَوَّنُ هَذَا الْمَسْكَن مِنْ طَابِقَيْنِ، الطَّابِقُ الْأَوَّلُ لِلْمَعِيشَةِ وَالْمَأْكَل وَالطَّابِقُ العُلْوِيّ خَاصٌّ بِالنَّوْمِ، وَأَنْ يَكُونَ بَيْنَ الطَّابِقَيْنِ حَاجِزٌ قَوِيٌّ لَهُ فَتْحَةٌ وَسُلَّمٌ خَشَبِيٌّ بِحَيْثُ يَحْمِيهُمَا مِنْ شَرِّ الْحَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ وَالزَّوَاحِفِ وَخَاصَّةً عِنْدَ اللَّيْلِ وَفِي أَثْنَاءِ نَوْمِهِمَا.

وَكَانَ «عُمَر خَان» قَدْ تَعَلَّمَ كَيْفِيَّةَ بِنَاءِ السُّفُنِ التِّجَارِيَّةِ الْكَبِيرَة وَالَّتِي تَتَكَوَّنُ مِنْ عِدَّةِ طَوَابِقَ فَاسْتَفَادَ مِنْ هَذِهِ الْخِبْرَة فِي بِنَاءِ وَإِقَامَةِ الْمَسْكَنِ، وَسَاعَدَتْهُ فِي ذَلِكَ زَوْجَتُهُ وَحَبِيبَتُه «چِي چِي بَان»، فَتَمَ تَجْمِيع كَمِّيَّاتٍ ضَخْمَةٍ مِنْ خَشَبِ الْأَشْجَارِ، كَما تَمَّ حَفْرُ أَسَاسٍ عَمِيقٍ لِهَذَا الْمَسْكَنِ لِيَكُونَ الْبِنَاءُ الْخَشَبِيُّ قَوِيًّا وَيَسْتَطِيعُ التَّصَدِّي لِلرِّيَاحِ الشَّدِيدَةِ، وَجَاءَ السَّقْفُ عَلَىٰ شَكْلٍ هَرَمِيٍّ مِنَ الْأَخْشَابِ وَأَفْرَعِ الشَّجَرِ، لِيَكُونَ قَادِرًا

عَلَىٰ التَّعَامُلِ مَعَ الْأَمْطَارِ الْغَزِيرَةِ.

وَتَمَّ بِنَاءُ الْمَسْكَنِ الْمَنْشُودِ وَمِنْ حَوْلِهِ الْحَدِيقَةُ الْمُبْهِرَةِ، فِي شُهُورٍ ثَلَاثَةٍ وَقَدْ أُثِّثَ بِكَرَاسِي وَطَاوِلاتٍ خَشَبِيَّةٍ، وَتَمَّ تَصْنِيعِ سَرِيرٍ خَشَبِيٍّ كَبِيرٍ وَجَاءَتْ الْمَرْتَبَةُ وَالْوَسَائِدُ مِنَ الْأَقْمِشَةِ الشِّرَاعِيَّةِ، وَتَمَّ حَشْوُهَا بِرِيشِ النَّعَامِ الَّذِي قَامَ «عُمَر خَان» بِاصْطِيَادِهِ لِلتَّغَذِّي عَلَىٰ لَحْمِهِ اللَّذِيذ وَالاسْتِفَادَةِ مِنْ رِيشِهِ وَعِظَامِهِ وَأُقِيمَ فِي حَدِيقَةِ الْمَسْكَنِ مَكَانٌ خَاصٌّ لِيَكُونَ مَصْدَرًا دَائِمًا لِلنَّارِ، حَيْثُ يَتِمُّ تَزْوِيدَهُ بِصُورَةٍ دَائِمَةٍ بِالْأَخْشَابِ وَالْأَعْشَابِ الْجَافَّةِ لِتَظَلَّ هَذِهِ النَّار مُشْتَعِلَةً لَيْلَ نَهَار؛ لاسْتِخْدَامِهَا فِي طَهْيِ الطَّعَامِ، وَالْحُصُول عَلَىٰ مَاءٍ سَاخِنْ لِلاسْتِحْمَامِ وَأَيْضًا كَمَصْدَرٍ لِلضَّوْءِ لَيْلاً، وَلِلدِّفَاعِ عَنِ النَّفْسِ عِنْدَ مُهَاجَمَةِ أَيَّةِ حَيَوَانَاتٍ ضَارِيَةٍ. كَمَا أُقِيمَ بِحَدِيقَةِ الْمَسْكَنِ حَوْضٌ كَبِيرٌ يُمْلَأُ بِصِفَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ بِالْمِيَاةِ الْعَذْبَةِ اللاَّزِمَة لِلشُّرْبِ وَالطَّهْيِ وَالاسْتِحْمَامِ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ، كَمَا كَانَ الْبَحْرُ مَصْدَرًا غِذَائِيًا مُهِمًّا مِنْ أَسْماكِهِ. وَقَدْ تَمَّ زِرَاعَةُ بَعْضِ الْبُذُورِ فِي الْحَدِيقَةِ لِخُضْرَوَاتٍ عَدِيدَةٍ مثل: الطَّمَاطِم، وَالْخِيَارِ، وَالْجَزَرِ، وَالْخَسّ، والكُوسَا، وَالبَطَاطَا، وَغَيْرِهَا.

وَاسْتَطَاعَ «عُمَر خَان» اسْتِئْنَاسَ بَعْضٍ مِنَ الْمَاعِزِ الْبَرِّي وَتَرْبِيَتِهِ دَاخِلَ حَظِيرَةٍ لِلاسْتِفَادَةِ مِنْ لَبَنِهَا وَلُحُومِهَا، واسْتِئْنَاس قِرْدٍ مِنَ النَّوْعِ الشَّمْبَانْزِي سُمِّيَ «سَانْدُو» أَصْبَحَ مَصْدَرًا لِلتَّرْوِيحِ وَإِدْخَالِ السُّرُورِ إِلَىٰ النُفُوسِ، وَلَمْ يَكَد يَمُرُّ سِتَّةُ أَشْهُرٍ عَلَىٰ إِقَامَةِ «عُمَر خَان» و«چِي چِي بَان» فِي الْجَزِيرةِ حَتَّىٰ كَانَتْ حَيَاتُهُمَا عَلَىٰ أَفْضَلِ وَجْهٍ وَسَعَادَةٍ، لِذَا أُطْلِقَ عَلىٰ جَزِيرَتِهِمَا اسم «جَزِيرةِ الْأَحْلاَمِ».

الفَصْلُ التَّاسِعُ

أَطْفَالٌ عَلَى الْجَزِيرَةِ

سَارَتِ الْأُمُورُ عَلَىٰ سُكَّانِ «جَزِيرَةِ الْأَحْلَامِ» عَلَىٰ أَفْضَلِ مَا يُرَام، فَالْحَيَاةُ مَلِيئَةٌ بِالْحُبِّ وَالْوُدِّ وَالسَّعَادَةِ وَالْعَمَلِ وَالْاجْتِهَادِ، وَحَرَصَ الشَّابُّ الْأَصِيلُ «عُمَر خَان» أَلاَّ يَدَّخِرَ وُسْعًا لِإِسْعَادِ زَوْجَتِهِ الْحَبِيبَةِ «چِي چِي بَان» وَتَلْبِيَةِ كُلِّ مَا تَطْلُب، كَمَا كَانَتْ

هِيَ أَيْضًا تَبْذُلُ قُصَارَىٰ جُهْدِهَا لِتُقَدِّمَ لِزَوْجِهَا الْحَبِيبِ كُلَّ مَا يُسْعِدُهُ وَتُحَاوِلُ دَائِمًا إِدْخَالَ السُّرُورِ وَالْفَرَحِ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِشَتَّىٰ السُبُلِ.

وَجَاءَ الْيَوْمُ الَّذِي تَوَّجَ سَعَادَةَ هَذَيْنِ الزَّوْجَيْنِ بِتَاجٍ رَائِعٍ عَلَىٰ رأْسَيْهِمَا، فَفِي هَذَا الْيَوْمِ أَخْبَرَت «چِي چِي بَان» زَوْجَهَا «عُمَر خَان» بِأَنَّهَا تَحْمِلُ بِدَاخِلِهَا مَوْلُودَهُمَا الْأَوَّلُ.

وَلَمْ تَسَعِ الدُّنْيَا لِفَرْحَةِ «عُمَر خَان»، فَهَا هِيَ الْحَيَاةُ بِإِذْنِ رَبِّهَا تَفْتَحُ لَهُمَا بَابًا آخَرَ مِنَ الْفَرْحَةِ وَالسُّرُورِ وَهُدُوءِ الْبَالِ، فَسَجَدَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَامِدًا شَاكِرًا مُمْتَنًا لِلْعَلِيِّ الْقَدِيرِ عَلَىٰ هَذِهِ النِّعْمَةِ الْغَالِيَةِ الَّتِي لاَ تُقَدَّرُ بِثَمَنٍ.

وَمَرَّتْ شُهُورُ الْحَمْلِ عَلَىٰ خَيْرٍ، وَجَاءَتْ وِلاَدَةُ طِفْلِهِمَا الْأَوَّل بِكُلِّ سُهُولَةٍ وَيُسْرٍ وَمَا أَنْ رَأَىٰ الْوَالِدُ طِفْلَهُ حَتَّىٰ قَالَ بَصَوْتٍ كُلُّهُ خَشُوع مَعَ بَعْضِ الدُّمُوعِ الَّتِي فَرَّتْ مِن عَيْنَيْهِ:

- بِسْم اللهِ مَا شَاءَ اللهُ ... أَحْمَدُكَ رَبِّي عَلَىٰ مَا أَنْعَمْتَ عَلَيْنَا بِهَذَا الطِّفْلِ رَائِعِ الْجَمَالِ.

وَلَمْ تَقِلَّ فَرْحَةُ الْأُمِّ بِطِفْلِهَا الْأَوَّلِ عَنْ فَرْحَةِ الْأَبِ، وَبَكَتْ مِنْ فَرْطِ سَعَادَتِهَا،

وَلاَحَظَتْ شَيْئًا مَّا عَلَىٰ الْكَتِفِ الْأَيْمَنِ لِلطِّفْلِ فَقَالَتْ لِزَوْجِهَا:

– انْظُرْ يَا عُمَر خَان ... إِنَّ اِبْنَكَ يَحْمِلُ عَلَىٰ كَتِفِهِ الْأَيْمَن الشَّامَة نَفْسَهَا الَّتِي عِندَكَ عَلَىٰ كَتِفِكَ الْأَيْمَن، شَامَة حَمْرَاء تُشْبِه قَلْباً صَغِيراً بَيْنَ سَيْفَيْنِ فَنَظَرَ الْأَبُ إِلَىٰ كَتِفِ اِبْنِهِ فَوَجَدَ الشَّامَة، فَسُرَّ لِذَلِكَ سُروًا كَبِيرًا وَقَبَّلَهُ قُبْلَةً مِلْؤُهَا الْحُبُّ وَالْحَنَانُ الْأَبَوِّيُّ.

وَاحْتَارَ الْأَبَوَان، مَاذَا يُسَمِّيَانِ طِفْلَهُمَا، حَيْثُ إِنَّ أَيَّ اسْمٍ لاَ يُوفِي الطِّفْلَ حَقَّهُ.

وَأَخِيرًا اسْتَقَرَّ الرَّأْي عَلَىٰ تَسْمِيَةِ الطِّفْلِ بِاسْمِ «بُوبَان» حَيْثُ اسْمِ جَدِّ «چِي چِي بَان» هُوَ «بُوبَان».

وَلَمْ يَأْخُذْ هَذَا الطِّفْلُ الرَّائِعُ مِنْ أَبَوَيْهِ اسْمَهُ فَقَطْ، بَلْ أَخَذَ مِنْ أَبِيهِ الْأَصَالَةَ وَالْعَرَاقَة وَالْوَسَامَة، كَمَا أَخَذَ مِنْ أُمِّهِ الْجَمَالَ وَالذَّكَاءَ وَالْوَدَاعَةَ فَكَانَ طِفْلاً أَرْوَعَ مَا يَكُونُ مِنَ الْأَطْفَالِ،

وَبَدَأَتْ أَنْحَاءُ الْجَزِيرَةِ وَكَائِنَاتِهَا تَسْمَعُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ بُكَاءَ طِفْلٍ وَضَحِكَاتِهِ.

وَمَرَّتِ الشُّهُورُ، وَبَدَأَ الطِّفْلُ الرَّائِعُ «بُوبَان» يَحْبُو عَلَىٰ أَرْضِ الْجَزِيرَةِ، ثُمَّ بَدَأَ خُطُوَاتِهِ الْأُولَىٰ عَلَيْهَا، يُرَاعِيه وَالِدُهُ تَمَامَ الرِّعَايَةِ بَدَنِيًّا وَعَقْلِيًّا وَنَفْسِيًّا، وَيُسَاعِدُهُمَا فِي ذَلِكَ الْقِرْدُ «سَانْدُو» الَّذِي أَخَذَ عَلَىٰ عَاتِقِهِ الْحِفَاظَ عَلَىٰ هَذَا الطِّفْلِ الْجَمِيلِ، وَحِمَايَتِهِ مِنْ أَيَّةِ أَخْطَارٍ، وَإِدْخَالِ السُّرُورِ عَلَىٰ قَلْبِهِ بِحَرَكَاتِهِ وَتَشَقْلُبَاتِهِ الْمَرِحَة.

وَحَمَلَتْ «چِي چِي بَان» بِمَوْلُودِهَا الثَّانِي، وَصَارَ هَمُّهَا الْأَوَّلُ هِيَ و«عُمَرُ خَان» رِعَايَةَ طِفْلِهَا «بُوبَان»، وَالاهْتِمَامَ بِصِحَّتِهَا رِعَايَةً لِطِفْلِهَا الثَّانِي الْقَادِمِ بَعْدَ شُهُورٍ قَلِيلَةٍ.

وَجَاءَتْ الْوِلَادَةُ الثَّانِيَةُ لِلْأُمِّ «چِي چِي بَان» سَهْلَةً وَمُيَسَّرَةً مِثْل وَلَادَتِهَا الْأُولَىٰ، وَلَكِن كَانَ الْمَوْلُودُ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ بِنْتًا رَائِعَةَ الْجَمَالِ، وَمَا أَنْ رَآهَا أَبُوهَا حَتَّىٰ صَاحَ فِي سَعَادَةٍ بَالِغَةٍ:

– چِي چِي ... ابْنَتُنَا هَذِهِ لَا يُوصَفُ جَمَالُهَا فَهِيَ فِي مِثْلِ جَمَالِكِ، إِنَّهَا تُحْفَةُ الزَّمَانِ.

ضَحِكَتْ الْأُمُّ فِي فَرَحٍ بَالِغٍ وَقَالَتْ:

– تُحْفَةُ الزَّمَانِ ... إِذَنْ هَذَا هُوَا اسْمُهَا ... تُحْفَةُ الزَّمَان.

وَرَدَّ الْأَبُ بِابْتِسَامَةٍ وَاسِعَةٍ تُضِيءُ وَجْهَهُ قَائِلاً:

– تُحْفَةُ الزَّمَانِ ... يَا لَهُ مِنْ اسْمٍ رَائِعٍ، هِيَ فِعْلاً اسْمٌ عَلَىٰ مُسَمَّى.

وَرَفَعَ يَدَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ قَائِلاً:

– أَحْمَدُكَ يَا رَبِّي عَلَىٰ أَنَّكَ رَزَقْتَنَا بِالطِّفْلِ الرَّائِعِ «بُوبَان» وَبِالطِّفْلَةِ الْجَمِيلَةِ «تُحْفَةُ الزَّمَانِ» اللَّهُمَّ احْفَظْهُمَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

وَمَرَّتْ الْأَيَّامُ، والشُّهُورُ، وَالسُّنُون، وَأَصْبَحَ مَوَالِيدُ الْأَمْسِ أَطْفَالَ الْيَوْمِ، فَهَا هُوَ «بُوبَان» صَبِيٌّ رَائِعٌ فِي العَامِ السَّادِسِ مِنْ عُمُرِهِ، وَقَدْ تَعَلَّمَ الْكَثِيرَ مِنْ عُلُومِ الْحَيَاةِ وَمَهَارَاتِ التَّعَامُلِ مَعَ الْبِيئَةِ، كَمَا تَعَلَّمَ مِن أَبَويهِ أَكْثَرَ مِنْ لُغَةٍ، وَاكْتَسَبَ الْكَثِيرَ مِنَ الْقِيَمِ الدِّينِيَّةِ الْأَصِيلَةِ، وَكَيْفَ يُؤَدِّي وَاجِبَاتِهِ نَحْوَ رَبِّهِ.

وَهَا هِيَ «تُحْفَةُ الزَّمَانِ» طِفْلَةٌ جَمِيلَةٌ فِي العَامِ الرَّابِعِ مِنْ عُمُرِهَا قَدْ تَعَلَّمَتْ كَذَلِكَ مِنْ وَالِدَيْهَا بِدَايَاتِ الْحَقَائِقِ الْعِلْمِيَّةِ، وَمَهَارَاتِ التَّعَايُشِ مَعَ بِيئَتِهَا، وَالْقِيَمِ اللاَّزِمَةِ لِحَيَاةٍ كَرِيمَةٍ.

وَمِنَ الْأُمُورِ الْمُثِيرَةِ لِلدَّهْشَةِ وَتَدْعُو لِلْعَجَبِ مَعَ السُّرُورِ أَنَّ الشَّمْبَانْزِي «سَانْدُو» كَانَ دَائِمًا مُلاَزِمًا لِكُلٍّ مِن «بُوبَان» وَ«تُحْفَةِ الزَّمَانِ» فِي مُعْظَمِ الْأَوْقَاتِ وَخَاصَّةً عِنْدَمَا يَتَجَوَّلاَنِ بِمُفْرَدِهِمَا مَعًا فِي بَعْضِ أَنْحَاءِ الْجَزِيرَةِ، فَيُرَافِقُهُمَا «سَانْدُو» لِيُرْشِدَهُمَا فِي دُرُوبِ الْجَزِيرَةِ وَطُرُقَاتِهَا، وَيَعْمَلُ عَلَىٰ رِعَايَتِهِمَا وَحِمَايَتِهِمَا مِنْ أَيَّةِ أَخْطَارٍ يُمْكِنُ أَنْ يَتَعَرَّضَا لَهَا، وَصَارَتْ بَيْنَ الطِّفْلَيْنِ و«سَانْدُو» أُلْفَةٌ وَمَحَبَّةٌ، وَأَيْضًا لُغَةٌ مُشْتَرَكَةٌ مَفْهُومَةٌ وَوَاضِحَةٌ سَوَاءً بِاسْتِخْدَامِ إِشَارَاتِ الْيَدَيْنِ، أَوْ حَرَكَةِ الْجِسْمِ، أَوْ عَنْ طَرِيقِ نَبَرَاتِ الْأَصْوَاتِ، وَنَظَرَاتِ الْعُيُونِ فَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ، وَبَيْنَمَا كَانَ «بُوبَان» وَأُخْتُهُ يَسِيرَانِ مَعًا فِي إِحْدَىٰ طُرُقَاتِ الْجَزِيرة، فَإِذَا بِقَدَمِ «تُحْفَةُ الزَّمَانِ» تَتَعَثَّرُ فِي حَجَرٍ فَسَقَطَتْ عَلَىٰ الْأَرْضِ لِتَصْدِمَ رَأْسَهَا بِحَجَرٍ آخَر، وَأَدَّىٰ هَذَا الاصْطِدَام بِإِصَابَتِهَا بِجُرْحٍ فِي رَأْسِهَا سَالَتْ عَلَىٰ أَثَرِهِ بَعْضُ الدِّمَاءِ عَلَىٰ وَجْهِهَا الْجَمِيلِ، وَفِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ غَابَتْ الصَّغِيرَةُ عِنْ الوَعْيِ وَرَاحَتْ فِي إِغْمَاءَةٍ.

وَانْزَعَجَ الصَّبِي «بُوبَانَ» عَلَىٰ إِصَابَةِ أُخْتِهِ وَحَاوَلَ الْعَمَل عَلَىٰ إِفَاقَتِهَا دُونَ جَدْوَىٰ، فَمَا كَانَ مِنْ «سَانْدُو» إِلاَّ أَنْ ذَهَبَ مُسْرِعًا إِلَىٰ مَسْكَنِ الْأُسْرَةِ وَهُوَ يَصْدِرُ أَصْوَاتًا تُمَثِّلُ اسْتِغَاثَةً عِنْدَمَا سَمِعَهَا كُلٌّ مِنْ «عُمَر خَان» و«چِي چِي بَان» أَدْرَكَا أَنَّ وَلَدَيْهِمَا فِي خَطَرٍ، فَأَسْرَعَا بِالذِّهَابِ مَعَ «سَانْدُو» حَتَّىٰ وَصَلاَ إِلَىٰ مَكَانِ وُجُودِ «بُوبَان» وَأُخْتِهِ

الْمُصَابَة وَالْمُلْقَاة عَلَىٰ الْأَرْضِ فَانْزَعَجَ الْأَبَوَانِ مِنْ مَنْظَرِ بِنْتِهِمَا، فَحَمَلَهَا الْأَبُ وَأَسْرَعَ الْجَمِيعُ إِلَىٰ المَسْكَنِ، وَعَلَىٰ الْفَوْرِ تَمَّت إِجْرَاءُ الإِسْعَافَاتِ اللاَّزِمَةِ، وَوَضَعَتْ بَعْضَ الْأَعْشَابِ الطِّبِيَّةِ عَلَىٰ الْجُرْحِ وَعَمِلا عَلَىٰ إِعْطَاءِ الْفَتَاةِ قِسْطًا مِنَ الرَّاحَةِ، فَعَادَتْ إِلَىٰ وَعْيِهَا، وَاطْمَأَنَّ الْجَمِيعُ عَلَىٰ سَلاَمَتِهَا، وَبَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ تَمَاثَلَتْ «تُحْفَةُ الزَّمَانِ» لِلشِّفَاءِ التَّام، وَذَلِكَ بِفَضْلِ اللهِ تَعَالَىٰ ثُمَّ بِفَضْلِ سُرْعَةِ تَحَرُّكِ «سَانْدُو» سَاعَةَ الْخَطَرِ، وَحُسْنِ تَصَرُّفِهِ، فَزَادَتْ مَحَبَّةُ أَفْرَادِ الأُسْرَةِ لِهَذَا القِرْدِ الصَّدِيقِ الذَّكِي وَالْوَفِيِّ.

الفَصْلُ العَاشِرُ

الزِّلْزَالُ

صَارَتْ الْحَيَاةُ هَادِئَةً مَعَ هَذِهِ الْأُسْرَةِ سَاكِنِي جَزِيرَةِ الْأَحْلَامِ، تَلُفُّهُمْ السَّعَادَةُ وَالطُّمَأْنِينَةِ وَالْأَمْن والْأَمَان، وَالْأَبُ وَالْأُمُّ يَسْعَيَانِ بِإِخْلاَصٍ لِتَوْفِيرِ كَافَّةِ الاحْتِيَاجَاتِ لِوَلَدَيْهِمَا «بُوبَان» وَ«تُحْفَةُ الزَّمَانِ»، وَيَعْمَلاَنِ بِاجْتِهَادٍ عَلَىٰ تَنْشِئَتِهِمَا التَّنْشِئَةَ السَّلِيمَةَ الصَّحِيحَةَ، وَإِكْسَابِهِمَا الْمَعْلُومَات وَالْمَعَارِفَ، وَأُصُولَ بَعْضِ اللُّغَاتِ وَخَاصَّةً الْعَرَبِيَّةَ وَالْأُورُبِّيَّةَ، وَكَذَلِكَ تَدْرِيبِهِمَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ مَهَارَاتِ الْحَيَاةِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي تُسَاعِدُهُمَا عَلَىٰ التَّعَامُلِ الصَّحِيحِ مَعَ مُعْطَيَاتِ الْبِيئَةِ مِنْ حَوْلِهِمَا، وَأَيْضًا بِتَرْسِيخِ الْعَدِيدِ مِنَ الْقِيَمِ فِي نَفْسَيْهِمَا، مِثْلَ: الصِّدْقِ، وَالْأَمَانَةِ، وَالْوَفَاءِ، وَالتَّضْحِيَةِ، وَالْإِيثَارِ، وَالشَّجَاعَةِ، وَالنَّظَافَةِ، وَالنِّظَامِ، وَالْعَدْلِ، وَالتَّسَامُحِ، وَالتَّعَاوُنِ، وَالكَرَمِ، والقَنَاعَةِ، وَغَيْرِهَا مِنْ تِلْكَ الْقِيَمِ الإِنْسَانِيَّةِ الْعَظِيمَةِ وَالأَخْلاَقِ الدِّينِيَّةِ القَوِيمَةِ.

وَأَضْفَىٰ الشَّمْبَانْزِي «سَانْدُو» عَلَىٰ حَيَاةِ هَذِهِ الْأُسْرَةِ السَّعِيدَةِ جَوًّا مِنَ المَرَحِ وَالسُّرُورِ وَالإِمْتَاعِ، فَمِنْ خِلاَلِ حَرَكَاتِهِ الذَّكِيَّةِ، وَسُلُوكِيَّاتٍ خَفِيفَةِ الظِّلِّ يُسْعِدُ أَفْرَادَ الْأُسْرَةِ كَمَا أَنَّهُ يَأْخُذُ عَلَىٰ عَاتِقِهِ حِمَايَةَ «بُوبَان» و«تُحْفَةِ الزَّمَان» وَالمُحَافَظَةَ عَلَيْهِمَا مِنْ أَيِّ خَطَرٍ مُحْدِقٍ بَيْنَهُمَا، أَو أَيِّ حَيَوَانَات أَوْ زَوَاحِفَ يُمْكِنُ أَن تُصِيبَهُمَا بِأَيَّةِ أَضْرَارٍ.

وَلَكِنَّ طَبِيعَةَ الْحَيَاةِ التَّغَيُّرُ وَالتَّبَدُّلُ، أَوْ كَمَا يُقُولُون «مِنَ الْمُحَالِ دَوَامُ الْأَحْوَالِ» فَسُبْحَانَ مُغَيِّرِ الْأَحْوَالِ، فَقَدْ حَدَثَ فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ مَا لَمْ يَكُنْ مُتَوَقَّعًا أَبَدًا، وَمَا لَمْ يَكُنْ يَخْطُرُ بِبَالِ كُلٍّ مِنْ «عُمَر خَان» وَ«چِي چِي بَان» أَنَّ الْأَقْدَارَ سَتَأْتِي بِأَهْوَالٍ لَمْ تَكُنْ فِي الْحُسْبَانِ، أَهْوَالٍ سَتُغَيِّرُ الْمَكَانَ وَالزَّمَانَ، وَيَا لَهَا مِنْ أَهْوَالٍ.

فَفِي صَبَاحِ أَحَدِ الْأَيَّامِ اسْتَيْقَظَت الْأُمُّ «چِي چِي بَان» مِنْ نَوْمِهَا وَقَد بَدَا عَلَيْهَا الْقَلَقُ وَالْحَيْرَةُ وَالانْزِعَاجُ، وَعِنْدَمَا اسْتَفْسَرَ مِنْهَا زَوْجُهَا «عُمَر خَان» عَنْ سَبَبِ هَذَا الْقَلَقِ وَالْحَيْرَةِ وَذَاكَ الانْزِعَاج، قَالَتْ لَهُ وَالْخَوْفُ يَكْسُو وَجْهَهَا الْجَمِيل:

– لاَ يَا عُمَر ... أَنَا لَسْتُ مُطْمَئِنَّة لِمَا رَأَيْتُهُ فِي مَنَامِي هَذِهِ اللَّيْلَة.

قَالَ لَهَا زَوْجُهَا فِي حَنَانٍ وَتَخَوُّفٍ:

– وَمَاذَا رَأَيْتِ فِي مَنَامِكِ اللَّيْلَةَ يَا حَبِيبَتِي؟

شَرَدَتْ الزَّوْجَةُ بِأَفْكَارِهَا، وَنَظَرَتْ إِلَىٰ الْأُفُقِ الْبَعِيد وَكَأَنَّهَا تُحَاوِلُ أَنْ تَتَذَكَّرَ دَقَائِقَ حِلْمِها لِتَصِفَهُ فَقَالَتْ:

– رَأَيْتُ فِيمَا يَرَىٰ النَّائِمُ أَنَّنَا فِي قَارِبِ شِرَاعِيٍّ كَبِيرٍ، أَنَا وَأَنْتَ وَمَعَنَا «بُوبَان» و«تُحْفَةُ الزَّمَانِ»، وَكَانَتْ أَمْوَاجُ الْبَحْرِ عَالِيَةً، فَتَجْعَلُ الْقَارِبَ الشِّرَاعِي يَهْتَزُّ بِقُوَّةٍ غَيْرِ عَادِيَةٍ، وَيُحَاوِلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا أَنْ يُمْسِكَ الْآخَر حَتَّىٰ لاَ يَقَعَ عَلَىٰ أَرْضِيَّةِ الْقَارَبِ، وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ نَظَرْتُ إِلَىٰ يَسَارِي فَوَجَدْتُّ أُمِّي وَأَبِي مَعَنَا فِي الْقَارَبِ الشِّرَاعِي نَفْسِهِ، وَلَكِنَّهُمَا كَانَا يَبْكِيَان، فَتَأَلَّمْتُ لِهَذَا الْبُكَاءِ، وَعِنْدَمَا اسْتِفْسَرْتُ عَنْ سَبَبِ بُكَائِهِمَا قَالاَ مَعًا فِي صَوْتٍ وَاحِدٍ: لَقَدْ أَخَذُوا مِنْكُمَا وَلَدَيْكُمَا ... أَخَذُوهُمَا بِغَيْرِ رَجْعَةٍ. فَقُلْتُ لَهُمَا: لاَ يَا أُمِّي وَلاَ يَا أَبِي لاَ تَبْكِيَا، إِنَّ وَلَدَيْنَا «بُوبَان» و«تُحْفَةُ الزَّمَانِ» مَعَنَا فِي هَذَا الْقَارَبِ بِجِوَارِ زَوْجِي «عُمَر خَان»، وَنَظَرْتُ يَمِينِي نَاحِيَةَ وَلَدَيْنَا فَلَمْ أَرَهُمَا فَقَدْ اخْتَفَيَا بِالْفِعْلِ، فَفَزِعْتُ فَزَعًا شَدِيدًا وَأَخَذْتُ أُنَادِي عَلَيْهِمَا،

وَكَذَلِكَ أَنْتَ دُونَ جَدْوَىٰ وَخَشِيتُ أَنْ يَكُونَ الْبَحْرُ ابْتَلَعَهُمَا، وَلَكِنَّكَ أَشَرْتَ بِيَدَيْكَ إِلَىٰ أَعْلَىٰ وَقُلْتَ لِي: هَا هُمَا وَلَدَانَا ... وَنَظَرْتُ إِلَىٰ المَكَانِ الَّذِي أَشَرْتَ إِلَيْهِ فَوَجَدْتُهُمَا يَقِفَانِ عَلَىٰ سَطْحِ سَفِينَةٍ عَالِيَةٍ، فَأَخَذْنَا نُنَادِي عَلَيْهِمَا وَنُلَوِّحُ لَهُمَا بِأَيْدِينَا وَلَكِنَّهُمَا لَمْ يَسْمَعَانَا، وَلَمْ يَلْتَفِتَا نَاحِيَتَنَا، وَمِنَ الْغَرِيبِ إِنَّنِي رَأَيْتُ «سَانْدُو» مَعَهُمَا، وَهُوَ فَقَط الَّذِي نَظَرَ إِلَيْنَا وَأَخَذَ يُلَوِّحُ بِيَدِهِ لَنَا وَشَعَرْتُ بِأَنَّهُ يُحَاوِلُ أَنْ يُرْسِلَ لَنَا رِسَالَةً مَفَادَهَا أَن اطْمَئِنُّوا فَإِنَّ وَلَدَيْكُمَا فِي حِمَايَتِي. وَفِي لَحْظَةٍ عَصِيبَةٍ جَاءَتْ مَوْجَةٌ عَاتِيَةٌ كَالْجَبَلِ عَلَىٰ الْقَارِبِ الشِّرَاعِيِّ الَّذِي نَسْتَقِلُّهُ فَإِذَا بِهِ يَنْقَلِبُ بِنَا فِي الْبَحْرِ، وَقُمْتُ مِنْ نَوْمِي مَفْزُوعَة وَكُلِّي خَوْفٌ عَلَىٰ وَلَدَيْنَا «بُوبَان» و«تُحْفَةُ الزَّمَانِ».

خَفَقَ قَلْبُ «عُمَر خَان» بِشِدَّةٍ مِنْ أَثَرِ كَلِمَاتِ زَوْجَتِهِ «چِي چِي بَان» وَهِيَ تَصِفُ مَا رَأَتْهُ مِنْ أَحْدَاثِ هَذَا الْحُلُمِ المُرَوِّعِ، وَالَّذِي يَتَنَبَّأُ بِأَحْدَاثٍ مُؤْلِمَةٍ، وَقَالَ وَهُوَ يُحَاوِلُ أَنْ يَبْتَسِمَ:

- لَقَدْ أَسْرَفْنَا فِي تَنَاوُلِ لَحْمِ النَّعَامِ فِي وَجْبَةِ الْعَشَاءِ اللَّيْلَةَ الْمَاضِيَةَ وَقَبْلَ أَنْ ننَامَ، وَأَحْيَانًا يُسَبِّبُ هَذَا اللَّحْمُ تُخْمَةً وَالَّتِي تُسَبِّب عِنْدَ النَّوْمِ رُؤْيَةَ كَوَابِيسَ مُزْعِجَةٍ، فَلاَ عَلَيْكِ يَا حَبِيبَتِي، فَإِنَّ

مَا رَأَيْتِهِ فِي هَذَا الْمَنَامِ مَا هُوَ إِلاَّ كَابُوسٌ لَيْسَ لَهُ أَيَّةَ دَلاَئِلَ حَقِيقِيَّة.

هَزَّتِ الزَّوْجَةُ رَأْسَهَا وَهِيَ تُحَاوِلُ أَنْ تُصَدِّقَ تَفْسِيرَ زَوْجِهَا لِهَذَا الْحُلْمِ الْمُخِيفِ قَائِلَةً:

- أَتَمَنَّىٰ أَنْ يَكُون مَا تَقُولُهُ يَا عُمَرُ هُوَ الْحَقِيقَةُ.

وَقَامَتْ «چِي چِي بَان» لِتُدِيرَ شُؤونَ حَيَاةِ أُسْرَتِهَا كَالْمُعْتَادِ مِنْ إِعْدَادِ طَعَامٍ وَتَنْظِيمِ الْمَسْكَنِ، وَتَنْظِيفِ الْمَلاَبِسِ، وَغَيْرِهَا مِنْ مَهَامِّ رَبَّةِ الْبَيْتِ الْمُتَعَدِّدَةِ.

كَمَا قَامَ «عُمَر خَان» مِنْ جَلْسَتِهِ لِإِنْجَازِ مَهَامِّهِ وَوَاجِبَاتِهِ نَحْوَ أُسْرَتِهِ وَهُوَ يُتَمْتِمُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ قَائِلاً: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة التوبة: آية 51].

أَمَّا «بُوبَان» وَأُخْتُهُ «تُحْفَةُ الزَّمَانِ» فَهُمَا كَعَادَتِهِمَا يَلْعَبَانِ وَيَتَنَزَّهَانِ فِي بَعْضِ الْمَنَاطِقِ بِالْجَزِيرَةِ الَّتِي تَكْثُرُ فِيهَا أَشْجَار بَعْضِ الْفَوَاكِه، وَتَزْدَانُ بِهَا مَجْمُوعَةٌ مِنَ الأَزْهَارِ بَدِيعَةُ الأَلْوَان، زَكِيَّةُ الرَّائِحَةِ، وَيُرافِقُهُمَا الصَّدِيق «سَانْدُو» الَّذِي يُسَاعِدُهُمَا دَائِمًا فِي الْحُصُولِ عَلَىٰ بَعْضِ الثِّمَارِ الطَّازَجَةِ حُلْوَةُ الْمَذَاقِ، كَمَا أَنَّهُ يَلْعَبُ مَعَهُمَا وَيَتَشَقْلَبُ فِي خِفَّةٍ وَمَرَحٍ وَهُمَا يَضْحَكَانِ مِنْ هَذِهِ الْحَرَكَاتِ وَتِلْكَ التَّشَقْلُبَاتِ.

وَفَجْأَةً ... حَدَثَ شَيْءٌ غَرِيبٌ وَغَيْرُ مَتَوَقَّعٍ، فَقَدْ لُوحِظَ أَنَّ طُيُورَ الْجَزِيرَةِ طَارَتْ جَمِيعُهَا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ وَمَلأَتْ سَمَاءَ الْجَزِيرَةِ وَهِيَ تُصْدِرُ أَصْوَاتًا أَشْبَهَ بِأَصْوَاتِ الْخَوْفِ وَالاسْتِغَاثَةِ، كَمَا لُوحِظَ أَيْضًا كَثِيرٌ مِنْ حَيَوَانَاتِ الْجَزِيرَةِ تَقْفِزُ هُنَا وَهُنَاكَ وَهِيَ فِي حَالَةِ خَوْفٍ وَفَزَعٍ لَيْسَ مِنْ قَبْلِهِ مَثِيل.

وَتَوَقَّفَ «سَانْدُو» عَنْ حَرَكَاتِ الْمَرَحِ وَالسُّرُور، وَبَدَتْ عَلَيْهِ عَلاَمَاتُ الْفَزَعِ وَأَخَذَ يَصْرُخُ وَيُشِيرُ إِلَىٰ: «بُوبَان» وَأُخْتِهِ أَنْ يَتْبَعَاهُ لَيْسَ فِي اتِّجَاهِ الْمَسْكَنِ وَشَطِّ الْبَحْرِ بَلْ إِلَىٰ دُرُوبٍ نَاحِيَةِ الْقِمَّةِ الْعَالِيَةِ لِلْجَزِيرَةِ، وَبِالفِعْلِ جَرَىٰ الطِّفْلاَنِ وَرَاءَهُ لِأَنَّهُمَا يَعْتَقِدَانِ دَائِمًا أَنَّ «سَانْدُو» يُوَجِّهُهُمَا إِلَىٰ مَا فِيهِ الْخَيْرُ لَهُمَا.

وَلاَحَظَتْ «چِي چِي بَان» وَهِيَ تُمَارِسُ وَاجِبَاتِهَا الْمَنْزِلِيَّةِ هَذِهِ الْجَلَبَةِ وَالأَصْوَات الـمُزْعِجَةِ مِنْ طُيُورِ الْجَزِيرَةِ وَحَيَوَانَاتِهَا، وَأَسْرَعَ إِلَيْهَا «عُمَر خَان» قَائِلاً بَعْدَ أَنْ لاَحَظَ هَذِهِ الْأَحْدَاثَ:

- هُنَاكَ أَمْرٌ غَيْرُ عَادِيٍّ يَحْدُثُ عَلَىٰ الْجَزِيرَةِ.

صَاحَتْ زَوْجَتُهُ فِي لَهْفَةٍ:

- «بُوبَان» وَ«تُحْفة» يَا عُمَرُ يَلْعَبَانِ فِي وَسَطِ الْجَزِيرَةِ.

رَدَّ عَلَيْهَا زَوْجُهَا:

- لاَ تَخْشَي شَيْئًا إِنَّهُمَا فِي مِنْطَقَةٍ قَرِيبَةٍ، وَسَوْفَ يَعُودَانِ فِي التَّوِّ لِلْمَسْكَنِ.

وَمَا أَنْ أَتَمَّ «عُمَر خَان» كَلِمَاتٍ حَتَّىٰ اهْتَزَّتِ الْأَرْضُ بِشِدَّةٍ تَحْتَ أَقْدَامِهِمَا فَسَقَطَا عَلَىٰ الْأَرْضِ، فَصَاحَ «عُمَر خَان»:

- هَذَا زِلْزَالٌ شَدِيدٌ يَا چِي چِي لَمْ يَحْدُثْ لَنَا مِنْ قَبْلُ عَلَىٰ هَذِهِ الْجَزِيرَة.

وَحَاوَلاَ الْقِيَامَ مِنْ عَلَىٰ الْأَرْضِ فَإِذَا بِالـهَزَّةِ الثَّانِيَةِ لِلْأَرْضِ أَقْوَىٰ وَأَشَدَّ، فَوَقَعَا مَعًا عَلَىٰ الْأَرْضِ، وَصَاحَتِ الزَّوْجَةُ فِي فَزَعٍ:

- الْأَوْلاَدُ يَا عُمَر!!

وَحَاوَلَ «عُمَر خَان» الْوُقُوفَ مَرَّةً أُخْرَىٰ لِيَبْحَثَ عَنْ «بُوبَان» و«تُحْفَة» وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلَقَدْ أَصْبَحَ اهْتِزَازُ الْأَرْضِ شَدِيدًا جِدًا وَمُتَكَرِّرًا بِصِفَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ لِدَرَجَةِ أَنَّ أَجْزَاء مِنَ الْمَسْكَنِ بَدَأَتْ تَتَسَاقَطُ وَتَتَنَاثَرُ.

وَبَعْدَ مُحَاوَلاَتٍ مُتَكَرِّرَة اسْتَطَاعَ «عُمَر خَان» أَنْ يَقِفَ، وَمَدَّ يَدَهُ إِلى زَوْجَتِهِ لِتَقِفَ هِيَ الْأُخْرَىٰ، وَبِالْفِعْلِ تَمَاسَكَ الزَّوْجَانِ وَأَخَذَا يُسْرِعَانِ الْخُطَىٰ رَغْمَ الاهْتِزَازَاتِ الشَّدِيدَةِ لِأَرْضِ الْجَزِيرَةِ الَّتِي ضَرَبَهَا زِلْزَالٌ هَائِلٌ فِي شِدَّتِهِ، وَأَخَذَ الْوَالِدَانِ يَصِيحَانِ وَيُنَادِيَانِ عَلَىٰ وَلَدَيْهِمَا، وَلَكِنَّ أَصْوَاتَ الصُّخُورِ الْمُتَسَاقِطَةِ مِنَ الْأَمَاكِنِ الْمُرْتَفِعَةِ فِي الْجَزِيرَةِ، وَصَرَخَاتِ الطُّيُورِ وَالْحَيَوَانَات، أَضَاعَتْ هَذِهِ الصَّيْحَاتِ وَتِلْكَ النِّدَاءَاتِ، وَهُنَا صَاحَتْ الْأُمُّ وَالدُّمُوعُ تَنْهَمِرُ مِنْ عَيْنَيْهَا قَائِلَةً:

- عُمَر ... هَذَا هُوَ الْحُلُمُ يَتَحَقَّقُ يَا عُمَر ... هَذَا مَا رَأَيْتُهُ فِي مَنَامِي.

- نَظَرَ زَوْجُهَا إِلَيْهَا فِي شَفَقَةٍ وَلَوْعَةٍ وَبَدَأَتْ تَظْهَرُ الدُّمُوعُ فِي مُقْلَتَيْهِ وَهُوَ يُتَمْتِمُ:

- ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾

أَمَّا «بُوبَان» وَأُخْتُهُ «تُحْفَةُ الزَّمَانِ» فَظَلاَ يَجْرِيَان خَلْفَ «سَانْدُو» نَاحِيَةَ أَعْلَىٰ قِمَّةٍ فِي الْجَزِيرَة، وَمِنْ حِينٍ لِآخَر يَسْقُطَانِ عَلَىٰ الْأَرْضِ مِنَ الاهْتِزَازَاتِ الْمُتَتَالِيَةِ لَهَا فَكَانَا يَقُومَانِ مِنْ عَلَىٰ الْأَرْضِ لِيُوَاصِلاَ الْعَدْوَ وَالْجَرْيَ خَلْفَ «سَانْدُو»، وَ«تُحْفَةِ الزَّمَانِ» تَبْكِي مِنْ شِدَّةِ الْفَزَعِ وَبَعْضِ الْآلاَمِ الَّتِي حَدَثَتْ لَهَا مِنْ سُقُوطِهَا عَلَىٰ الْأَرْضِ، وَأَخَذَتْ تَصِيحُ قَائِلَةً:

- أُمِّي ... أَبِي ... أَيْنَ أَنْتُمَا؟ أُمِّي ... أَبِي ...

وَحَاوَلَ أَخُوهَا أَنْ يُهَوِّنَ عَلَيْهَا وَعَلَىٰ نَفْسِهِ هَوْلَ الْمَوْقِفِ فَقَالَ لَهَا:

- لاَ عَلَيْكِ يَا أُخْتِي الْحَبِيبَة، سَتَكُونُ الْأُمُور إِنْ شَاءَ اللهِ عَلَىٰ مَا يُرَام، وَسَوْفَ نَجْتَمِعُ بِأَبِينَا وَأُمِّنَا قَرِيبًا، وَلَكِنْ عَلَيْنَا الْآنَ أَنْ نَتْبَعَ «سَانْدُو» فِي تَحَرُّكَاتِهِ فَهُوَ يَعْرِفُ جَيِّدًا كَيْفَ يُنْقِذُنَا مِنَ الْأَخْطَارِ، فَهَذَا مَا عَهِدْنَاهُ مِنْهُ سَابِقًا.

وَكُلَّمَا تَوَقَّفَ الطِّفْلاَنِ عَنِ الْجَرْيِ صَرَخَ «سَانْدُو» صَرَخَاتٍ تَعْنِي أَنْ يَتْبَعَانِهِ

بِأَقْصَى سُرْعَةٍ مُمْكِنَةٍ؛ لأَنَّ الْخَطَرَ الْقَادِمَ مَهُولٌ.

وَأَخِيرًا ضَرَبَ الزِّلْزَالُ الرَّهِيبُ ضَرْبَتَهُ الْقَاصِمَةَ فَتَهَاوَتْ أَجْزَاءُ الْجَزِيرَةِ وَبَدَأَتْ تَغُوصُ فِي الْبَحْرِ، وَكَأَنَّمَا قَدْ فَتَحَ الْبَحْرُ فَاهُ الْوَاسِعُ لِيَبْتَلِعَ الْجَزِيرَةَ بِكُلِّ مَا فِيها، وَغَرِقَتْ الْمَنَاطِقُ الْمُنْخَفِضَةُ فِي الْجَزِيرَةِ فَغَرِقَ الْجُزْءُ الأَسْفَلُ مِنْ مَسْكَنِ الْأُسْرَةِ، فَأَخَذَ كُلٌّ مِنْ «عُمَر خَان» و«چِي چِي بَان» يَجْرِيَانِ بِكُلِّ مَا لَدَيْهِمَا مِنْ قُوَّةٍ وَعَزْمٍ لِيَصْعَدَا إِلَىٰ أَمَاكِنَ عَالِيَةٍ مَنَ الْجَزِيرَةِ فِي مُحَاوَلَةٍ لِتَفَادِي شَرَّ الْغَرَقِ فِي مِيَاهِ الْبَحْرِ، وَبِالْفِعْلِ نَجَحَا فِي ذَلِكَ، وَصَعَدا إِلَىٰ أَمَاكِنَ آمِنَةٍ وَبَعِيدًا عَنْ مِيَاهِ الْبَحْرِ وَفِي هَذِهِ اللَّحَظَاتِ اسْتَطَاعَ «سَانْدُو» أَنْ يَصِلَ وَمَعَهُ «بُوبَان» وَ«تُحْفَةُ الزَّمَانِ» إِلَىٰ مِنْطَقَةٍ أَكْثَرَ أَمَانًا فِي أَعْلَىٰ الْجَزِيرَةِ، وَلَكِنَّ الطِّفْلَةَ الْمِسْكِينَةَ أَخَذَتْ تَبْكِي وَتَصِيحُ فِي فَزَعٍ:

– أُمِّي ... أَبِي ... أَيْنَ أَنْتُمَا؟ أَقْبِلاَ لِنَجْدَتِنَا ...

وَحَاوَلَ «بُوبَان» أَنْ يَتَمَاسَكَ وَلاَ يَنْهَارَ مِنْ أَجْلِ أُخْتِهِ، وَقَالَ لَهَا:

– تَمَسَّكِي يَا أُخْتِي الْحَبِيبَةُ ... هُمَا بِخَيْرٍ ... وَبَعْدَ قَلِيلٍ سَنَلْتَقِي بِهِمَا ...

وَأَدْرَكَ «سَانْدُو» فِي هَذِهِ اللَّحَظَاتِ شُعُورَهُمَا، وَإِحْسَاسَهُمَا بِالْوَحْشَةِ فَأَخَذَ يُرَبِّتُ عَلَىٰ كَتِفَيْهِمَا لِمُوَاسَاتِهِمَا تَقْلِيلاً مِنْ وَحْشَتِهِمَا.

وَتَوَقَّفَتْ هِزَّاتُ الْأَرْضِ فَجْأَةً كَمَا بَدَأَتْ فَجْأَةً، فَأَحَسَّ كُلٌّ مِنْ «بُوبَان» وَ«تُحْفَةُ الزَّمَانِ» بِالْأَمَانِ وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ زَادَ كُلٌّ مِنْ «عُمَر خَان» و«چِي چِي بَان» مِنْ قُوَّتِهِمَا فِي الصُّعُودِ إِلَىٰ الْأَمَاكِنِ الْعَالِيَةِ مِنْ بَقَايَا الْجَزِيرَةِ حَيْثُ ابْتَلَعَ الْبَحْرُ جُزْءًا كَبِيرًا مِنْهَا.

وَعِنْدَمَا سَادَ الْهُدُوءُ بَقَايَا الْجَزِيرَةِ، أَخَذَ «عُمَر خَان» و«چِي چِي بَان» يَصِيحَانِ عَلَىٰ وَلَدَيْهِمَا:

- بُوبَان ... تُحْفَةُ الزَّمَانِ ...

- أَيْنَ أَنْتُمَا؟

وَهُنَا سَمِعَ «سَانْدُو» نِدَاءَ الْوَالِدَيْنِ ... فَوَقَفَ عَلَىٰ صَخْرَةٍ عَالِيَةٍ وَأَخَذَ يَصْرُخُ وَيَقْفِزُ فِي الْهَوَاءِ وَيُصْدِرُ صَيْحَاتٍ عَالِيَةٍ، حَتَّىٰ سَمِعَ الْوَلِدَانِ صَرَخَاتِهِ وَصَيْحَاتِهِ، وَحَدَّدَا مَكَانَهُ ... فَأَسْرَعَا مَعًا نَاحِيَةَ مَكَانِ «سَانْدُو» وَوَلَدَيْهِمَا.

وَكَانَ لِقَاءً رَائِعًا بَعْدَ أَنْ وَصَلَ الْوَلِدَان إِلَىٰ الْمَكَانِ الَّذِي تَوَاجَدَ فِيهِ كُلٌّ مِنْ «بُوبَان» و«تُحْفَةُ الزَّمَانِ» فَأَخَذَاهُما تَقْبِيلاً، وَاحْتِضَاناً فِي لَهْفَةٍ وَانْفِعَالٍ شَدِيدَيْنِ، وَدُمُوعُهُمَا تَتَسَاقَطُ بِغَزَارَةٍ مِنَ الْفَرْحَةِ بَعْدَ أَنْ ظَنَّا أَنْ لاَّ تَلاَقِيَ.

وَأَخَذَ كُلٌّ مِنْ «بُوبَان» وَ«تُحْفَةُ الزَّمَانِ» يَحْتَضِنَانِ وَالِدَيْهِمَا فِي شَغَفٍ وَفَرَحٍ لاَ مَثِيلَ لَهُ، أَمَّا «سَانْدُو» فَأَخَذَ يَقْفِزُ إِلَىٰ أَعْلَىٰ وَيَتَشَقْلَبُ فِي فَرَحٍ وَسُرُورٍ مُعَبِّرًا عَنْ سَعَادَتِهِ فِي لَمِّ شَمْلِ الْأُسْرَةِ بَعْدَ أَنْ كَادَ هَذَا الزِّلْزَالُ اللَّعِين أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ أَفْرَادِ هَذِهِ الْأُسْرَةِ السَّعِيدَةِ.

وَبَعْدَ أَنْ احْتَضَنَتْ «چِي چِي بَان» وَلَدَيْهَا، أَخَذَت تُرَبِتُ عَلَىٰ رَأْسِ الشَمْبَانْزِي «سَانْدُو» فِي سَعَادَةٍ وَامْتِنَانٍ؛ لِأَنَّهُ اهْتَمَّ بِوَلَدَيْهَا فِي هَذَا الْوَقْتِ الْعَصِيبِ.

الفصل الحادي عشر

الْكَنْزُ

اسْتَمَرَ الْحَالُ وَقْتًا طَوِيلاً، وَجَلَسَ الجَمِيعُ عَلَىٰ الْأَرْضِ لِالتِقَاطِ الأَنْفَاسِ بَعْدَ المُعَانَاةِ الَّتِي سَبَّبَها لَهُم هَذَا الزِّلْزَالُ اللَعِينُ، وَأَخَذَتِ الأُمُّ طِفْلَيْهَا بِجِوَارِهَا تَحْتَضِنُهُمَا فِي أُمُومَةٍ وَحَنَانٍ وَهِيَ غَيْرُ مُصَدِّقَةٍ أَنْ وَلَدَيْهَا بِخَيْرٍ بَعْدَ هَذِهِ المِحْنَةِ الأَلِيمَةِ، وَقَدْ تَذَكَّرَتِ الرُّؤْيَا الَّتِي رَأَتْهَا فِي مَنَامِهَا فِي اللَّيْلَةِ السَّابِقَةِ، فَأَخَذَتْ تُتَمْتِمُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ نَفْسِهَا قَائِلَةً: الْحَمْدُ لِلَّهِ ... الْحَمْدُ لِلَّهِ ...

وَجَلَسَ «عُمَر خَان» وَسْطَ أُسْرَتِهِ وَهُوَ سَعِيدٌ بِنَجَاتِهِمْ أَجْمَعِينَ، أَمَّا الْقِرْدُ «سَانْدُو» فَأَخَذَ يَتَحَرَّكُ وَيَقْفِزُ بَيْنَ الْحِينِ والْآخَرِ فِي سَعَادَةٍ بَالِغَةٍ بِهَذِهِ النِّهَايَةِ السَّعِيدَةِ.

وَبَعْدَ انْقِضَاءِ وَقْتٍ لَيْسَ بِالْقَصِيرِ قَامَ الْجَمِيعُ وَتَحَرَّكُوا فِي اتِّجَاهِ مَسْكَنِهِمْ أَسْفَلَ الْجَزِيرَةِ، وَفِي أَثْنَاءِ السَّيْرِ تَوَقَّفَ «عُمَر خَان» فَجْأَةً، وَبَدَتْ عَلَىٰ وَجْهِهِ عَلاَمَاتُ الدَّهْشَةِ، وَالتَّعَجُّبِ وَقَالَ فِي اسْتِغْرَابٍ:

- هَلْ يُعْقَلُ هَذَا؟

الْتَفَتَتْ «چِي چِي بَان» نَاحِيَةَ زَوْجِهَا وَقَالَتْ:

- مَا الَّذِي أَدْهَشَكَ يَا عُمَر؟

أَجَابَ الزَّوْجُ عَلَىٰ تَسَاؤُلِ زَوْجَتِهِ قَائِلاً:

- أَنَا أَعْرِفُ كُلَّ مَكَانٍ فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ، فَلَقَدْ تَنَقَّلْتُ بَيْنَ أَرْجَائِهَا لِسَنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ وَلَكِنَّنِي لَمْ أَرَ مِثْلَ الَّذِي أَرَاهُ الْآنَ.

وَاسْتَمَرَّتْ «چِي چِي بَان» فِي تَسَاؤُلَاتِهَا قَائِلَةً:

- مَا الَّذِي تَرَاهُ يَا عُمَر وَسَبَّبَ لَكَ كُلَّ هَذِهِ الدَّهْشَةِ؟

أَشَارَ «عُمَر خَان» إِلَىٰ فَتْحَةِ كَهْفٍ ضَخْمٍ وَقَالَ:

- هَذَا الْكَهْفَ لَمْ أَرَهُ قَبْلَ الآن.

وَأَكَّدَ «بُوبَان» عَلَىٰ كَلَامِ وَالِدِهِ قَائِلاً:

- نَعَمْ ... نَعَمْ يَا أَبِي ... أَنَا لَمْ أَرَ هَذَا الْكَهْفَ فِي ذَاكَ المَكَانِ مِنْ قَبْلُ.

وَقَدَّمَتْ الْأُمُّ بَعْدَ تَفْكِيرٍ اسْتِنْتَاجَهَا قَائِلَةً:

- أَيَكُونُ الزِّلْزَالُ هُوَ السَّبَبُ فِي إِزَاحَةِ الْأَحْجَارِ الَّتِي كَانَتْ تَسُدُّ فَتْحَةَ الْكَهْفِ.

ابْتَسَمَ «عُمَر خَان» مِنْ ذَكَاءِ زَوْجَتِهِ وَقَالَ:

- هَذَا هُوَ التَّفْسِير الْمَنْطِقِيُّ يَا زَوْجَتِي الْحَبِيبَة، فَعَلَىٰ مَا يَبْدُو أَنَّهُ كَانَ هَنَاكَ زِلْزَالٌ شَدِيدٌ مُنْذُ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ تَسَبَّبَ فِي إِغْلَاقِ فَتْحَةِ الْكَهْفِ بِصُخُورٍ ضَخْمَةٍ، وَجَاءَ زِلْزَالُ الْيَوْمِ فَأَطَاحَ بِهَذِهِ الصُّخُور فَظَهَرَ هَذَا الْكَهْفُ الْكَبِيرُ.

تَسَاءَلَتْ الطِّفْلَةُ «تُحْفَةُ الزَّمَانِ» وَهِي تُتَابِعُ هَذَا الْحِوَارَ بَيْنَ أُمِّهَا وَأَبِيهَا فَقَالَتْ:

- أَنَذْهَبُ لِنَرَىٰ مَا بِدَاخِلِ هَذَا الْكَهْفِ يَا أَبِي؟ أَمْ نُرْجِيءُ هَذَا لِوَقْتٍ آخَرَ؟

صَمَتَ الْأَبُ قَلِيلاً ثُمَّ أَجَابَ عَنْ تَسَاؤُلِ ابْنَتِهِ وَقَالَ:

- نَعَمْ سَنَذْهَبُ لِنَرَىٰ مَا بِدَاخِلِ هَذَا الْكَهْفِ يَا ابْنَتِي.

وَفِي حَذَرٍ وَتَخَوُّفٍ تَحَرَّكَ الْجَمِيعُ نَاحِيَةَ فَتْحَةِ الْكَهْفِ الضَّخْمِ. وَمَا أَنْ وَصَلُوا إِلَىٰ فَتْحَةِ الْكَهْفِ حَتَّىٰ لاَحَظُوا أَنَّ مَدْخَلَ الْكَهْفِ قَدْ أَضَاءَهُ ضَوْءُ النَّهَارِ، أَمَّا دَاخِلَ

الْكَهْفِ فَيُخَيِّمُ عَلَيْهِ الظَّلاَمُ. قَالَ «عُمَر خَان»:

- ابْقَوْا مَكَانَكُم هُنَا عِنْدَ فَتْحَةِ الْكَهْفِ، وَسَأَدْخُلُ لِأَتَبَيَّنَ مَاذَا بِدَاخِلِه.

وَبِالْفَعْلِ وَقَفَ الْجَمِيعُ «چِي چِي بَان» وابْنُهَا «بُوبَان» وَابْنَتُهَا «تُحْفَةُ الزَّمَانِ» وَمَعَهُمْ الْقِرْدُ «سَانْدُو» الَّذِي ظَهَرَتْ عَلَىٰ وَجْهِهِ تَعْبِيرَاتُ الْقَلَقِ وِالخَوْفِ.

وَتَقَدَّمَ «عُمَر خَان» بَخُطُوَاتٍ حَذِرَةٍ إِلَىٰ دَاخِلِ الْكَهْفِ، وَلَكِنَّهُ لِمْ يِجِدْ شَيْئًا، فَأَخَذَتْهُ قَدَمَاهُ إِلَىٰ مَزِيدٍ مَنَ الخُطُوَاتِ، فَلاَحَظَ أَنَّ الظَّلاَمَ أَرْخَىٰ سَتَائِرَهُ عَلَىٰ الْجَوَانِبِ الدَّاخِلِيَّةِ لِلْكَهْفِ، وَفِي لَحْظَةٍ انْطَلَقَتْ عِنْدَهَا صَيْحَةٌ مِنْ فَمِ «عُمَر خَان» مَمْزُوجَةٌ بِالتَّعَجُّبِ وَالْخَوْفِ فَصَاحَ قَائِلاً:

- يَا رَبِّي ... يَا رَبِّي مَا هَذَا ... ؟!!

وَبِشَكْلٍ لَا إِرَادِي انْدَفَعَتْ «چِي چِي بَان» وَمِنْ خَلْفِهَا «بُوبَان» وَ«تُحْفَةُ الزَّمَانِ» وَ«سَانْدُو» إِلَىٰ دَاخِلِ الْكَهْفِ نَاحِيَةَ «عُمَر خَان»، وَصَاحَتْ الزَّوْجَةُ:

- مَاذَا يَا عُمَر؟ مَاذَا وَجَدْت؟

أَجَابَ «عُمَر خَان» وَهُوَ فِي حَالَةِ التَّعَجُّبِ المَمْزُوجِ بِالْخَوْفِ:

- هَذَا هَيْكَلٌ عَظْمِي لِشَخْصٍ مُمَدَّدٍ عَلَىٰ الْأَرْضِ، وَعَلَىٰ مَا يَبْدُو أَنَّهُ مَاتَ مِنْ عَشَرَاتِ السِّنِين أَوْ مِنْ مِئَاتِ السِّنِين.

وَانْطَلَقَتْ صَيْحَةُ رُعْبٍ مِنَ الطِّفْلَةِ «تُحْفَةُ الزَّمَانِ» مِنْ مُشَاهَدَتِهَا لِلْهَيْكَلِ الْعَظْمِي، وَالْتَصَقَتْ بِشِدَّةٍ بِأُمِّهَا الَّتِي حَاوَلَتْ أَنْ تُهَدِأَ مِنْ رُعْبِهَا.

أَمَّا «بُوبَان» فَلَمْ يَجِدْ سِوَىٰ الشَّمْبَانْزِي «سَانْدُو» لِيُمْسِكَ بِهِ فِي مُحَاوَلَةٍ مِنْهُ أَنْ يُقَلِّلَ مِنْ خَوْفِهِ.

قَالَ «عُمَر خَان» وَهُوَ يُحَاوِلُ أَنْ يُهَدِّيءَ مِنْ رَوْعِ عَائِلَتِهِ:

- إِنَّهُ هَيْكَلٌ عَظْمِيٌّ لِشَخْصٍ مَاتَ مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ ...

قَالَتْ «چِي چِي بَان»:

– وَكَيْفَ دَخَلَ هَذَا الشَّخْصُ لِهَذَا الْكَهْفِ وَفَتْحَتُهُ مَسْدُودَةٌ بِالصُّخُورِ؟

أَجَابَ «عُمَر خَان» وَهُوَ يَدُور حَوْلَ الْهَيْكَلِ الْعَظْمِيِّ يَتَفَحَّصُهُ قَائِلاً:

– الاسْتِنْتَاج الَّذِي قَدَّمْتِيهِ يَا «چِي چِي» عَلَىٰ مَا يَبْدُو أَنَّهُ الْحَقِيقَةُ، حَيْثُ يَبْدُو أَنَّ هَذَا الْكَهْفَ كَانَ مَفْتُوحًا فَدَخَلَ هَذَا الشَّخْصُ فِيهِ، وَجَاءَ زِلْزَالٌ قَوِيٌّ فَأَغْلَقَتْ الصُّخُورُ فَتْحَتَهُ الَّتِي لَمْ تَظْهَر مَرَّةً أُخْرَىٰ إِلاَّ بِزِلْزَالِ الْيَوْمِ.

وَفِي أَثْنَاءِ حَرَكَةِ «عُمَر خَان» حَوْلَ الْهَيْكَلِ الْعَظْمِيِّ اصْطَدَمَتْ قَدَمَاهُ بِبَعْضِ جُلُودٍ جَافَّةٍ كَانَتْ مَوْجُودَةً بِجِوَارِ صَاحِبِ الْهَيْكَلِ الْعَظْمِيِّ.

صَاحَ «عُمَر خَان»:

– مَا هَذَا؟

قَالَتْ «چِي چِي بَان» وَهِيَ خَائِفَة:

– مَاذَا يَا عُمَر؟ مَاذا وَجَدْتَّ؟

قَالَ «عُمَر خَان» وَهُوَ يَلْتَقِطُ مَجْمُوعَةً مَنْ جُلُودٍ حَيَوَانِيَّةٍ جَافَّةٍ:

– هَذِهِ جُلُودٌ حَيَوَانِيَّةٌ جَافَّةٌ، وَأَظُنَّ أَنَّهَا جُلُودٌ لِمَجْمُوعَةٍ مِنَ الْغِزْلاَنِ.

عَلَّقَ «بُوبَان» عَلَىٰ كَلاَمِ أَبِيهِ قَائِلاً:

– وَمَا أَهَمِّيَّةُ هَذِهِ الْجُلُود الْجَافَّةِ يَا أَبِي؟

رَدَّ «عُمَر خَان» وَهُوَ يَتَفَحَّصُ تِلْكَ الْجُلُودَ الْقَدِيمَة قَائِلاً:

– يَا إِلَهِي هَذِهِ الْجُلُودُ عَلَيْهَا كِتَابَاتٌ تَمَّتْ كِتَابَتُهَا بِأَقْلاَمٍ مِنَ الْفَحْمِ الأَسْوَدِ.

قَالَتْ الزَّوْجَة:

– كِتَابَات !! أَيَّةُ كِتَابَات يَا عُمر؟

أَجَابَ الزَّوْجُ:

– عَلَىٰ مَا يَبْدُو أَنَّ هَذَا الشَّخْصَ صَاحِبُ الْهَيْكَلِ الْعَظْمِيّ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَبْعَثَ بِرِسَالَةٍ لِأَيِّ إِنْسَانٍ يَحْكِي فِيهَا عَنْ حِكَايَتِهِ.

قَالَت «چِي چِي بَان»:

– وَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقْرَأَ مَا كَتَبَهُ صَاحِبُ الْهَيْكَلِ الْعَظْمِيّ هَذَا؟

رَدَّ «عُمَر خَان»:

– أَوَّلاً نَجْمَعُ كُلَّ الْجُلُودِ الْجَافَّةِ الْمَكْتُوبِ فِيهَا حِكَايَةَ هَذَا الشَّخْصِ.

وَبِالْفِعْلِ بَدَأَ «عُمَر خَان» وَزَوْجَتُهُ «چِي چِي بَان» يَجْمَعَانِ كُلَّ الْجُلُودِ الْمَكْتُوبِ عَلَيْهَا بِأَقْلاَمِ الْفَحْمِ مَا أَرَادَ هَذَا الشَّخْص أَنْ يَعْرِفَهُ النَّاسُ.

وَبَعْدَ أَنْ جَمَعَ «عُمَر خَان» وَزَوْجَتُهُ كُلَّ الْجُلُودِ الْجَافَّةِ، قَالَ «عُمَر خَان»:

– الْإِضَاءَةُ هُنَا ضَعِيفَةٌ، فَهَيَّا بِنَا نَخْرُجُ خَارِجَ الْكَهْفِ وَنُحَاوِلُ قِرَاءَةَ مَا كُتِبَ عَلَىٰ هَذِهِ الْجُلُودِ.

وَخَرَجَ الْجَمِيعُ مِنْ فَتْحَةِ الْكَهْفِ، وَأَمْسَكَ «عُمَر خَان» بِالْجُلُودِ الْجَافَّةِ يُرَتِّبُهَا

بِحَسَبِ كِتَابَتِهَا، إِذْ أَنَّ عَلَيْهَا رُمُوزًا تُوَضِّحُ هَذَا التَّرْتِيبِ.

جَلَسَ الْجَمِيعُ عَلَىٰ الْأَرْضِ يَسْتَمِعُونَ لِحِكَايَةِ صَاحِبِ الْهَيْكَلِ الْعَظْمِيّ.

قَالَ «عُمَر خَان»:

- لِحُسْنِ الْحَظِّ أَنَّهَا مَكْتُوبَةٌ بِلُغَةٍ أُجِيدُ قِرَاءَتَهَا وَالتَّحَدُّثَ بِهَا.

وَبَدَأَ «عُمَر خَان» يَقْرَأُ وَالْجَمِيعُ فِي لَهْفَةٍ لِسَمَاعِ سِرِّ هَذَا الشَّخْصِ، حَتَّىٰ الْقِرْدُ «سَانْدُو» جَلَسَ بَيْنَهُمْ يَسْتَمِعُ لِهَذِهِ الْحِكَايَةِ.

وَقَرَأَ «عُمَر خَان» مَا كُتِبَ عَلَىٰ الْجُلُودِ الْجَافَّةِ فَقَالَ:

- أَنَا الْمَلِكُ «رُوشَان» حَاكِمُ مَمْلَكَةِ «أَصْلاَن»، قَضَيْتُ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةً أَحْكُمُ بَيْنَ أَفْرَادِ مَمْلَكَتِي بِالْعَدْلِ، فَكُلُّ النَّاسِ عِنْدِي سَوَاسِيَةٌ لاَ فَرْقَ بَيْنَ فَرْدٍ وَآخَرَ إِلاَّ بِالْأَخْلاَقِ الْحَمِيدَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ الْمُنْتِجِ، فَكُنْتُ لاَ أُمَيِّزُ بَيْنَ غَنِيٍّ وَفَقِيرٍ وَلاَ بَيْنَ أَمِيرٍ وَخَفِيرٍ، حَتَّىٰ إِنَّنِي كُنْتُ أُعَامِلُ أَخِي وَشَقِيقِي «مَرْدَان» مُعَامَلَةَ الْمُوَاطِنِ الْعَادِيِّ فِي مَمْلَكَتِي، وَهَذَا مَا جَعَلَ أَخِي «مَرْدَان» فِي حَالَةِ غَضَبٍ دَائِمٍ، فَكَيْفَ يُعَامِلُ مُعَامَلَةَ عَامَّةِ النَّاسِ وَهُوَ الْأَخُ الْأَصْغَرُ لِلْمَلِكِ، بَلْ سَيَكُونُ الْمَلِكَ مِنْ بَعْدِهِ.

وَانْتَهَزَ أَخِي «مَرْدَان» سَفَرَ عَائِلَتِي فِي رِحْلَةٍ تَرْوِيحِيَّةٍ إِلَىٰ إِحْدَىٰ الْمَمَالِكِ الْقَرِيبَةِ مِنْ مَمْلَكَةِ «أَصْلاَن» وَدَبَّرَ مَكِيدَةً كَيْ يَتَخَلَّصَ مِنِّي وَيَقْتُلَنِي لِيُصْبِحَ هُوَ الْمَلِكُ.

وَفِي مُنْتَصَفِ لَيْلِ أَحَدِ الْأَيَّامِ جَاءَ أَحَدُ الْمُخْلِصِينَ وَحَكَىٰ لِي بِأَمْرِ هَذِهِ الْمَكِيدَةِ وَقَالَ لِي:

- إِنَّ أَخَاكَ «مَرْدَان» اسْتَعَدَّ فِي صَبَاحٍ بَاكِرٍ لِيَأْمُرَ أَتْبَاعَهُ بِالْقَبْضِ عَلَيْكَ وَبَعْدَ مُحَاكَمَةٍ صُورِيَّةٍ يَأْتِي فِي نِهَايَتِهَا الْحُكْمُ بِإِعْدَامِكَ.

فَقُلْتُ لَهُ:

- إِذَنْ اجْمَعْ لِي بَعْضَ الْحُرَّاسِ الْمُخْلِصِين وَمَعَهُم بَعْضُ الْخَدَمِ لِنَرْحَلَ قَبْلَ

طُلُوعِ الْفَجْرِ عَلَىٰ السَّفِينَةِ الْخَاصَّةِ بِي.

وَجَمَعْتُ كُلَّ مَا أَمْتَلِكُهُ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ وَأَحْجَارٍ كَرِيمَةٍ غَالِيَةِ الثَّمَنِ وَوَضَعْتُهُ فِي صُنْدُوقٍ كَبِيرٍ، كَما أَخَذْتُ كُلَّ مُسْتَلْزَمَاتِ الْحَيَاةِ.

وَقَبْلَ طُلُوعِ الْفَجْرِ كُنْتُ وَمَعِي بَعْضُ الْحُرَّاسِ وَالْخَدَمِ عَلَىٰ السَّفِينَةِ الَّتِي أَبْحَرَتْ فِي سُكُونِ اللَّيْلِ مِنْ شَاطِيءِ مَمْلَكَةِ «أَصْلاَن» إِلَىٰ عَرْضِ الْبَحْرِ.

وَبَعْدَ أَيَّامٍ طَوِيلَةٍ مِنَ الْمُضِيِّ فِي عَرْضِ الْبَحْرِ هَبَّتْ عَاصِفَةٌ شَدِيدَةٌ جَعَلَتْ أَمْوَاجَ الْبَحْرِ تَرْتَفِعُ وَكَأَنَّهَا جِبَالٌ، وَكَادَتْ أَنْ تُغْرِقَ السَّفِينَةَ وَكُلَّ مَنْ فِيهَا، وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ فَانْتَهَتِ الْعَاصِفَةُ دُونَ حُدُوثِ مَكْرُوهٍ لَنَا.

وَشَاهَدْنَا هَذِهِ الْجَزِيرَةَ فَقَرَّرْنَا الاسْتِقْرَارَ بِهَا، وَزَادَ مِنْ هَذَا الاسْتِقْرَار أَنَّ بِهَذِهِ الْجَزِيرَةِ كُلُّ مُسْتَلْزَمَاتِ الْحَيَاةِ مِنْ مِيَاهٍ عَذْبَةٍ وَفَوَاكِهَ وَحَيَوَانَاتٍ وَطُيُورٍ وَغَيْرِهَا.

وَبِالْفِعْلِ اتَّخَذْنَا مِنْ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ مَكَانًا آمِنًا لَنَا لِحِينِ أَنْ أُقَرِّرَ الْعَوْدَةَ إِلَىٰ مَمْلَكَةِ «أَصْلاَن» وَزِيَادَةً فِي الاحْتِيَاطِ وَضَعْتُ صُنْدُوقَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالْأَحْجَارِ الكَرِيمَةِ فِي هَذا الْكَهْفِ بَعْدَ أَنْ حَفَرْنَا حُفْرَةً مُنَاسِبَةً، وَضَعْنَا فِيهَا الصُّنْدُوقَ، وَقُمْنَا بِرَدْمِ الصُّنْدُوقِ بِالْحِجَارَةِ، وَأَظْهَرْنَا فَقَط حَلَقَةً مَعْدِنِيَّةً عَلَىٰ أَرْضِ الْكَهْفِ لِاسْتِرْجَاعِ الصُّنْدُوقِ وَقْتَ اللُّزُومِ.

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ وَالشُّهُورُ وَالسِّنُون وَنَحْنُ نَعِيشُ فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ لِحِينِ الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ لِلرُّجُوعِ إِلَىٰ الْمَمْلَكَةِ «أَصْلاَن».

وَعَلَى فَتَراتٍ مَاتَ بَعْضُ الْحَرَسِ وَالْخَدَمِ، وَمَعَ مُرُورِ الْوَقْتِ مَاتَ كُلُّ مَنْ كَانَ مَعِي، وَأَصْبَحْتُ وَحِيدًا انْتَظَرْتُ الْمَوْتَ، وَاتَّخَذْتُ مِنَ الْكَهْفِ مَسْكَنًا لِي، وَهَا أَنَا ذَا لاَ أَسْتَطِيعُ الْحَرَكَةَ وَقَدْ حَانَ لِي الاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ.

فَأَوَدُّ مِمَّنْ يَقْرَأُ حِكَايَتِي هَذِهِ أَنْ يُبْلِغَ سُكَّانَ مَمْلَكَتِي «أَصْلاَن» أَنَّنِي كُنْتُ أَعْدِلُ بَيْنَهُمْ وَلَم أَظْلِمْ أَحَدًا، وَأَنَّ أَخِي «مَرْدَان» أَرَادَ التَّخَلُّصَ مِنِّي لِيُصْبِحَ هُوَ الْمَلِكُ.

سَلاَمٌ عَلَىٰ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْحِكَايَةَ، وَسَلاَمٌ عَلَىٰ هَذِهِ الدُّنْيَا وَمَنْ فِيهَا، وَنَلْتَقِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَيْثُ يَحْكُمُ اللهُ تَعَالَىٰ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَعْمَلُون، إِمْضَاء الْمَلِك «رَوشَان» حَاكِم مَمْلَكَةِ «أَصْلاَن».

وَانْتَهَىٰ «عُمَر خَان» مِنْ قِرَاءَةِ حِكَايَةِ الْمَلِكِ «رُوشَان»، وَتَأَثَّرَ الْجَمِيعُ مِنْ هَذِهِ الْحِكَايَةِ الْمُحْزِنَةِ، حَتَّىٰ أَنَّ «چِي چِي بَان» لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُخْفِي حُزْنَهَا فَفَرَّتْ مِنْ عَيْنَيْهَا الْجَمِيلَتَيْنِ بَعْضُ الدُّمُوعِ، وَمَا أَنْ رَأَتْ الطِّفْلَةُ «تُحْفَةُ الزَّمَانِ» هَذَا التَّأَثُّرَ عَلَىٰ وَجْهِ أُمِّهَا حَتَّىٰ بَكَتْ هِيَ الْأُخْرَىٰ وَتَجَهَّمَ وَجْهُ الْقِرْدِ «سَانْدُو» وَكَأَنَّهُ فَهِمَ حِكَايَةَ هَذَا الْمَلِكِ الَّذِي مَاتَ فِي الْغُرْبَةِ.

أَمَّا «بُوبَان» فَقَدْ صَاحَ صَيْحَةَ فَرَحٍ قَائِلاً:

– أَبِي ... إِنَّ مِنْ حَقِّنَا هَذَا الْكَنْزُ الْمَدْفُونُ فِي هَذَا الْكَهْفِ.

ابْتَسَمَتِ الْأُمُّ مِنْ كَلاَمِ وَلَدِهَا وَمَسَحَتْ دُمُوعَهَا وَقَالَتْ:

– نَعَمْ يَا وَلَدِي إِنَّ مِنْ حَقِّنَا هَذَا الْكَنْزُ المَدْفُون هُنَا مِنْ مِئَاتِ السِّنِينَ ... أَلَيْسَ هَذَا صَحِيحًا يَا زَوْجِي الْعَزِيز؟

أَجَابَ «عُمَر خَان»:

– بَلَىٰ إِنَّهُ مِنْ حَقِّنَا، وَلَكِنْ قَبْلَ أَنْ نَبْحَثَ عَنِ الْحَلَقَةِ الْمَعْدَنِيَّةِ الَّتِي سَتُوصِلُنَا إِلَىٰ هَذَا الْكَنْزِ عَلَيْنَا أَنْ نُصَلِّي صَلاَةَ الْجَنَازَةِ عَلَىٰ رُفَاتِ هَذِا الْمَلِكِ الْعَظِيمِ

«رُوشَان» ثُمَّ نَدْفِنُهُ فِي الْمَكَانِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ.

وَبِالْفَعْلِ دَخَل الْجَمِيعُ الْكَهْفَ مَرَّةً أُخْرَىٰ، وَتَمَّ حَفْرُ قَبْرٍ مُنَاسِبٍ لِرُفَاتِ الْمَلِكِ وَقَامَ كُلٌّ مِنْ «عُمَر خَان» و«چِي چِي بَان» بِصَلاَةِ الْجَنَازَةِ عَلَىٰ هَذَا الرُّفَات، وَالدُّعَاءِ لَهُ بِأَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُ وَأَنْ يُسْكِنَهُ فَسِيحَ جَنَّاتِهِ.

وَتَمَّ وَضْعُ الْهِيْكَلِ الْعَظْمِيِّ فِي الْقَبْرِ الَّذِي أُعِدَّ لِذَلِكَ، ثُمَّ أُهِيلَ عَلَيْهِ التُّرَابُ وَالرِّمَال وَبَعْضُ الصُّخُورِ، وَبِذَلِكَ يَكُونُ قَدْ تَمَّ دَفْنُ الْمَلِك.

وَبَعْدَ مَرَاسِمِ الدَّفْنِ هَذِهِ أَخَذَ الْجَمِيعُ فِي الْبَحْثِ عَنِ الْحَلَقَةِ الْمَعْدَنِيَّةِ الَّتِي يُوجَدُ أَسْفَلَهَا هَذا الْكَنْزُ الرَّائِعُ.

الفَصْلُ الثَّانِي عَشَرَ

رَوْعَةُ اللِّقَاءِ

حَاوَلَ الْجَمِيعُ أَنْ يَعْثُرُوا عَلَىٰ الْحَلْقَةِ الْمَعْدَنِيَّةِ دَاخِلَ الْكَهْفِ، وَلَكِنْ بَاءَتْ مُحَاوَلَتُهمُ بِالْفَشَلِ وَدَبَّ الْيَأْسُ فِي نُفُوسِ الْعَائِلَةِ «عُمَر خَان» و«چِي چِي بَان» و«بُوبَان» و«تُحْفَةُ الزَّمَانِ» وَبَعْدَ الْفَرْحَةِ الْعَارِمَةِ الَّتِي اجْتَاحَتْ نُفُوسَهُم بِوُجُودِ الْكَنْزِ تَحْتَ أَقْدَامِهِمْ، حَلَّ مَحَلَّها الإِحْبَاطُ فَلَنْ يَعْثُرُوا عَلَىٰ الْكَنْزِ الْمُنْتَظَرِ، وَصَمَتَ الْجَمِيعُ وَطَأْطَأُوا الرُّؤوسَ، فَالْفَرْحَةُ لَمْ تَتِمْ.

قَالَ «عُمَر خَان» فِي كَلِمَاتٍ يُلُفُّهَا الْيَأْسُ:

– عَلَىٰ مَا يَبْدُوا أَنَّ مَوْضُوعَ الْحَلْقَةِ الْمَعْدَنِيَّةِ وَهْمٌ عِشْنَاهُ لَحَظَات، فَلاَ تُوجَدُ حَلْقَةٌ مَعْدَنِيَّةٌ، وَلاَ يُوجد كَنْزٌ.

قَالَتْ «چِي چِي بَان» بِصَوْتٍ حَزِين:

– لَيْسَ مُهِمًّا أَنْ نَعْثُرَ عَلَىٰ هَذَا الْكَنْزِ، مَا دُمْنَا نَحْنُ جَمِيعًا بِخَيْرٍ، لَقَدْ كَتَبَ اللهُ لَنَا اليَوْمَ عُمْرًا جَدِيدًا.

قَالَ «بُوبَان» وَهُوَ يُفَكِّرُ:

– أَيَكُون الزِّلْزَالُ الَّذِي حَدَثَ الْيَوْمَ قَدْ أَزَاحَ الْكَنْزَ مِنْ مَكَانِهِ.

وَعَلَّقَتْ «تُحْفَةُ الزَّمَانِ» قَائِلَةً:

– كَانَ أَمَلاً جَمِيلاً، ثُمَّ أَضْحَىٰ حُلْماً ضَائِعاً.

قَالَ «عُمَر خَان» فِي مُحَاوَلَةٍ لِإِزَالَةِ هَذَا الْجَوِّ الْمُحْبِطِ:

- لاَ عَلَيْكُم يَا أَبْنَائِي الْأَعِزَّاء ... سَوْفَ نَعُودُ الْآنَ إِلَىٰ مَسْكَنِنَا الَّذِي تَحَطَّمَ جُزْءٌ مِنْهُ بِفِعْلِ الزِّلْزَال، وَنُحَاوِلُ إِصْلاَحَهُ، ثُمَّ نَعُودُ غَدًا إِلَىٰ هَذَا الْكَهْفِ مَرَّةً أُخْرَىٰ نَبْحَثُ عَنِ الْحَلْقَةِ الْمَعْدِنِيَّةِ وَعَنِ الْكَنْزِ.

وَهَمَّ الْجَمِيعُ بِمُغَادَرَةِ الْكَهْفِ، وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ سَمِعُوا صَوْتَ «سَانْدُو» وَهُوَ يَصِيحُ وَيَصْرُخُ بِدَاخِلِ الْكَهْفِ، فَهَرَعَ الْجَمِيعُ نَاحِيَة «سَانْدُو» خَوْفًا مِنْ أَنْ يَكُون قَدْ أَصَابَهُ مَكْرُوهٌ.

وَكَانَتْ الْمُفَاجَأَةُ الْمُذْهِلَةُ، فَلَقَدْ عَثَرَ «سَانْدُو» عَلَىٰ الْحَلْقَةِ الْمَعْدِنِيَّةِ الَّتِي ظَلَّ مُمْسِكًا بِهَا يَصْرُخُ فَرَحًا وَطَرَبًا.

صَاحَ «عُمَر خَان» وَهُوَ غَيْرُ مُصَدِّق عَيْنَيْهِ:

- يَا إِلَهِي لَقَدْ عَثَرَ «سَانْدُو» عَلَىٰ الْحَلْقَةِ الْمَعْدِنِيَّةِ.

وَرَدَّتْ «چِي چِي بَان» فِي فَرَحٍ وَسُرُورٍ بَالِغَيْنِ قَائِلَةً:

- الْحَمْدُ لِلَّهِ ... الْحَمْدُ لِلَّهِ ...

أَمَّا «بُوبَان» وَأُخْتُهُ «تُحْفَةُ الزَّمَانِ» فَظَلاَّ يَرْقُصَانِ فِي سَعَادَةٍ بَالِغَةٍ وَصَدِيقُهُمَا «سَانْدُو» بَيْنَهُمَا يَقْفِزُ وَيَتَشَقْلَبُ مُعَبِّرًا عَنْ فَرْحَتِهِ بِسَعَادَةِ هَذِهِ الْعَائِلَة.

وَأَمْسَكَ «عُمَر خَان» بِالْحَلْقَةِ الْمَعْدِنِيَّةِ، وَأَخَذَ فِي إِزَاحَةِ الْأَتْرِبَةِ وَالرِّمَالِ وَالصُّخُورِ فِي الْمَكَانِ الَّذِي تُوجَدُ بِهِ تِلْكَ الحَلْقَةُ الْمَعْدِنِيَّةِ، وَسَاعَدَتْهُ زَوْجَتُهُ فِي هَذَا الْعَمَل.

وَبَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ الْوَقْتِ ظَهَرَ صُنْدُوقٌ كَبِيرٌ، فَصَاحَتْ «چِي چِي بَان» بِفَرْحَةٍ لاَ تُوصَفُ وَقَالَتْ:

- هَذَا هُوَ الْكَنْزُ يَا عُمَر ... هَذَا هُوَ الْكَنْزُ يَا «بُوبَان» وَيَا «تُحْفَةُ الزَّمَانِ».

وَسَجَدَ «عُمَر خَان» عَلَىٰ الْأَرْضِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَل سَجْدَةَ شُكْرٍ وَعِرْفَانٍ عَلَىٰ هَذَا

الْعَطَاءِ غَيْرِ الْمُتَوَقَّعِ وَأَخَذَ يُنَاجِي رَبَّهُ قَائِلاً:

– أَحْمَدُكَ يَا رَبِّ عَلَىٰ هَذَا الْعَطَاءِ، كَمْ كُنْتَ كَرِيمًا يَا إِلَهِي مَعِي وَمَعَ عَائِلَتِي هَذَا الْيَوْم فَقَدْ أَنْقَذْتَنَا مِنْ هَذَا الزِّلْزَالِ الرَّهِيبِ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ أَعْطَيْتَنَا مِنْ خِلاَلِ هَذَا الزِّلْزَالِ نَفْسِهِ هَذَا الْكَنْز، كَنْزَ الْمَلِكِ «رُوشَان» ... أَحْمَدُكَ يَا رَبِّ ... أَحْمَدُكَ ...

وَقَامَ «عُمَر خَان» مِنْ سَجْدَتِهِ، وَأَخَذَ فِي إِزَاحَةِ كُلِّ مَا عَلَى غِطَاءِ الصُّنْدُوقِ مِنْ أَتْرِبَةٍ وَرِمَالٍ وَصُخُورٍ، ثُمَّ فَتَحَ غِطَاءَ الصُّنْدُوقِ فَإِذَا بِهَذَا الصُّنْدُوقِ الضَّخْمِ قَدْ امْتَلأَ عَنْ آخِرِهِ بِنُقُودٍ ذَهَبِيَّةٍ وَفِضِّيَّةٍ، وَأَحْجَارٍ كَرِيمَةٍ مِثْلَ اليَاقُوتِ الْأَحْمَرِ وَالْكَهْرَمَانِ الْأَصْفَرِ، وَإِذَا فِي وَسَطِ هَذَا الْكَنْزِ تُوجَدُ جَوْهَرَةٌ ضَخْمَةٌ فِي حَجْمِ الْبُرْتُقَالَةِ، مَنْظَرُهَا يَأْخُذُ بِالْعُقُولِ.

وَصَاحَتْ «چِي چِي بَان» وَهِيَ لاَ تُصَدِّقُ مَا تَرَىٰ قَائِلَةً:

– مَا هَذَا الَّذِي آرَاهُ يَا عُمَر ... أَتُوجَدُ مُجَوْهَرَاتٍ بِهَذِهِ الرُّوْعَةِ وَالْجَمَالِ!!

وَعَلَّقَ «بُوبَان» عَلَىٰ كَلاَمَ أُمِّهِ فَقَالَ:

– لاَ شَكَّ أَنَّ هَذَا الْكَنْزَ الرَّائِعَ لاَ نَسْتَطِيعَ أَنْ نُقَدِّرَهُ بِثَمَنٍ.

قَالَتْ «تُحْفَةُ الزَّمَانِ»:

– الشُّكْرُ بَعْدَ اللهِ يَكُونَ لـ «سَانْدُو» الَّذِي كَشَفَ لَنَا هَذَا الْكَنْزَ.

وَأَخَذَت الْفَتَاةُ الْجَمِيلَةُ تَمْسَحُ عَلَىٰ رَأْسِ «سَانْدُو» فِي عَطْفٍ وَحَنَانٍ وَامْتِنَانٍ مِمَّا جَعَلَ هَذَا الْقِرْدَ يَقْفِزُ وَيَتَشَقْلَبُ فَرَحًا وَسَعَادَةً.

وَبَعْدَ أَنْ خَفَّتْ حِدَّةُ هَذِهِ الْمُفَاجَأَةِ الْمُذْهِلَةِ، قَالَ «عُمَر خَان»:

- إِنَّنَا لَنْ نَسْتَطِيعَ أَنْ نَحْمِلَ هَذَا الْكَنْزَ الضَّخْمَ بِأَيَّةِ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ ...

قَالَت «چِي چِي بَان» فِي اسْتِفْسَارٍ:

- وَكَيْفَ سَنَأْخُذُهُ إِذَنْ يَا عُمَر؟

رَدَّ عُمَر قَائِلاً:

- إِنَّنَا سَنَعُودُ إِلَىٰ مَسْكَنِنَا الْآنَ، وَنُصْلِحُ فِيهِ مَا يُمْكِنُ إِصْلاَحُهُ، وَبَعْدَ ذَلِكَ سَنَأْتِي بِجُلُودِ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي نَدَّخِرُهَا بَعْدَ تَجْفِيفِهَا وَنَصْنَعُ مِنْهَا عَدَدًا كَبِيرًا مِنَ الصُّرَرِ، بِحَيْثُ نَمْلَأُ كُلَّ صُرَّةٍ مِنْهَا بِجُزْءٍ مِنْ مُحْتَوَيَاتِ الْكَنْزِ، فَيَسْهُلُ نَقْلُهُ والاحْتِفَاظُ بِهِ.

وَبِالْفِعْلِ رَجَعَ الْجَمِيعُ إِلَىٰ مَسْكَنِهِمْ، وَحَاوَلُوا إِصْلاَحَ الْجُزْءِ الَّذِي أَفْسَدَهُ الزِّلْزَالُ ثُمَّ جَاءُوا بِجُلُودِ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي كَانُوا يَحْتَفِظُونَ بِهَا بَعْدَ تَجْفِيفِهَا وَاسْتِخْدَامِهَا لِأَغْرَاضٍ حَيَاتِيَّةٍ. وَبَدَأَتْ «چِي چِي بَان» بِمُسَاعَدَةِ زَوْجِهَا «عُمَر» فِي تَفْصِيلِ الصُّرَرِ الْجِلْدِيَّةِ حَتَّىٰ أَتَمَّتْ عِشْرِينَ مِنْ تِلْكَ الصُّرَرِ.

وَنَامَ الْجَمِيعُ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ الْعَصِيبِ الَّذِي بَدَأَ بِكَارِثَةٍ مُحَقَّقَةٍ، وَانْتَهَىٰ بِفَرْحَةٍ مُذْهِلَةٍ.

وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي ذَهَبَ الْجَمِيعُ إِلَىٰ الْكَهْفِ وَمَعَهُم الصُّرَرُ الْجِلْدِيَّةُ، وَبَدَأُوا فِي تَعْبِئَةِ كُلِّ صُرَّةٍ جِلْدِيَّةٍ بِالنُّقُودِ الذَّهَبِيَّةِ وَالْفِضِّيَّةِ وَبِالْأَحْجَارِ الكَرِيمَةِ، ثُمَّ تُرْبَطُ فَتْحَةَ كُلِّ صُرَّةٍ جَيِّدًا بِرِبَاطٍ مَتِينٍ حَتَّىٰ لاَ تَسْقُطَ مِنْهَا أَيَّ قِطَعٍ ذَهَبِيَّةٍ أَوْ حَجَرٍ كَرِيمٍ.

وَفِي نِهَايَةِ الْيَوْمِ كَانَتْ هُنَاكَ فِي سَكَنِ الْعَائِلَةِ عِشْرُونَ صُرَّةٍ جِلْدِيَّةٍ كُلٌّ مِنْهَا مَلآنٌ بِجُزْءٍ مِنْ مُحْتَوَيَاتِ هَذَا الْكَنْزِ الْمُذْهِلِ، وَتُعَدُّ كُلُّ صُرَّةٍ مِنْ تِلْكَ الصُّرَرِ كَنْزًا فِي حَدِّ ذَاتِهَا.

وَتَشَاورَ «عُمَر خَان» مَعَ زَوْجَتِهِ الْجَمِيلَةِ «چِي چِي بَان» قَائِلاً:

– زَوْجَتِي الْحَبِيبَة ... طَالَمَا نَحْنُ فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ فَلَنْ نَسْتَفِيدَ مِنْ هَذَا الْكَنْزِ الَّذِي وَهَبَنَا اللهُ إِيَّاهُ.

رَدَّتْ «چِي چِي بَان» وَابْتِسَامَةٌ تُضِيءُ وَجْهَهَا الْجَمِيل:

– هَذَا بِالطَّبْعِ يَا عُمَر ... فَمَا فَائِدَةُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّة وَالْجَوَاهِرِ بِدُونِ بَشَرٍ ...

قَالَ «عُمَر خَان»:

– آنَ الْأَوَانُ يَا چِي چِي أَنْ نُغَادِرَ هَذِهِ الْجَزِيرَة وَنَعُودَ إِلَىٰ بَلَدِنَا الْحَبِيبِ، وَإِنْ كُنَّا قَدْ عِشْنَا فِيهَا أَحْلَىٰ أَيَّامِ حَيَاتِنَا.

قَالَتْ الزَّوْجَةُ مُسْتَفْسِرَةً:

– وَكَيْفَ سَنُغَادِرُ الْجَزِيرَةَ يَا عُمَر؟

رَدَّ الزَّوْجُ قَائِلاً:

– سَنَنْتَهِزُ أَوَّلَ فُرْصَةٍ لِمُرُورِ أَيَّةِ سَفِينَةٍ تِجَارِيَّةٍ بِالْقُرْبِ مِنَ الْجَزِيرَةِ وَنَطْلُبُ مِنْ أَصْحَابِهَا أَنْ يَحْمِلُونَا مَعَهُم إِلَىٰ إِحْدَىٰ الْمُدُنِ السَّاحِلِيَّةِ.

قَالَت الزَّوْجَةُ فِي سَعَادَةٍ غَامِرَةٍ:

– الرَّأْيُ فِيمَا تَرَاهُ يَا زَوْجِي الْحَبِيب ...

وَمَرَّتْ الْأَيَّامُ وَالْأَسَابِيعُ، وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ شَاهَدَ «عُمَر خَان» سَفِينَةً تِجَارِيَّةً تَمُرُّ بِالْقُرْبِ مِنَ الْجَزِيرَةِ، فَصَعَدَ «عُمَر خَان» إِلَىٰ صَخْرَةٍ عَالِيَةٍ وَأَخَذَ يُشَاوِرُ وَيَصِيحُ عَلَىٰ أَصْحَابِ السَّفِينَةِ حَتَّىٰ انْتَبَهُوا إِلَيْهِ، وَقَرَّرُوا أَنْ يُلَبُّوا حَاجَةَ سَاكِنِ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ.

وَنَزَلَ قَارِبٌ مِنَ السَّفِينَةِ فِيهِ الرُّبَّانُ وَمُسَاعِدُهُ وَبَعْضُ الْبَحَّارَةِ، وَاتَّجَهُوا صَوْبَ شَاطِيءِ الْجَزِيرَةِ.

وَاسْتَقْبَلَهُمْ «عُمَر خَان» بِتَرْحَابٍ، وَأَفْهَمَهُمْ أَنَّهُ كَانَ رُبَّانَ سَفِينَةٍ تِجَارِيَّةٍ كَبِيرَةٍ وَلَكِنَّهَا غَرِقَتْ عَلَىٰ إِثْرِ عَاصِفَةٍ شَدِيدَةٍ، فَلَجَأَ هَوَ وَعَائِلَتُهُ إِلَىٰ تِلْكَ الْجَزِيرَةِ لِحِينِ يَجِدُ مَنْ يَحْمِلُهُ إِلَىٰ إِحْدَىٰ الْمُدُنِ السَّاحِلِيَّةِ، وَإِنَّهُ مَا زَالَ يَحْتَفِظُ بِجُزْءٍ مِنْ ثَرْوَتِهِ، وَأَفْهَمَهُم أَنَّهُ سَيُعْطِيهِمْ مُقَابِلاً مُجْزِيًا إِذَا هُمْ لَبُّوا طَلَبَهُ.

قَالَ رُبَّانُ السَّفِينَةِ التِجَارِيَّةِ:

– عَلَىٰ الرَّحْبِ وَالسَّعَةِ، سَنَأْخُذُ مِنْكُمْ ثَلاَثَةَ أُوقِيَّاتِ ذَهَبٍ عَلَىٰ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، وَحَيْثُ أَنَّكُم أَرْبَعَةُ أَفْرَادٍ، فَسَوْفَ نَأْخُذُ اثْنَيْ عَشَرَ أُوقِيَّةً ذَهَبًا.

قَالَ «عُمَر خَان» مُبْتَسِمًا:

– أُوَافِقُ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَالشُّكْرُ لَكَ أَيُّهَا الرُّبَّانُ الْكَرِيمُ، وَلَكِنْ مَعَنَا قِرْدُ «شَمْبَانْزِي» سَنَأْخُذُهُ مَعَنَا لِأَنَّ أَبْنَائِي مُرْتَبِطُونَ بِهِ كَثِيرًا.

هُنَا قَطَّبَ الرُّبَّانُ عَلَىٰ جَبِينِهِ وَقَالَ رافِضًا:

– لاَ ... إِنَّنَا لاَ نَحْمِلُ فِي سَفِينَتِنَا قُرُودًا.

قَالَ «بُوبَان» وَهُوَ فِي غَايَةِ الانْزِعَاجِ:

– لاَ ... لاَ نَسْتَطِيعَ أَنْ نَرْحَلَ وَنَتْرُكَ «سَانْدُو» وَحِيدًا فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ.

قَالَتْ الْفَتَاةُ «تُحْفَةُ الزَّمَانِ» فِي تَحَدٍّ وَالدُّمُوعَ تَكَادُ تَسْقُطُ مِنْ عَيْنَيْهَا:

– لَنْ نُغَادِرَ الْجَزِيرَةَ بِدُونِ أَنْ يَكُونَ مَعَنَا «سَانْدُو».

وَأَخَذَ «عُمَر خَان» يُسَاوِمُ رُبَّانَ السَّفِينَةِ التِجَارِيَّةِ عَلَىٰ أَهَمِيَّةِ أَنْ يَكُونَ مَعَهُم «سَانْدُو» وَالرُّبَّانُ يَرْفُض.

وَأَخِيرًا قَال «عُمَر خَان» لِلرُّبَانِ:

– إِذَا كُنْتُ سَأُعْطِيكَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أُوقِيَّةً ذَهَبًا لِنَقْلِنَا نَحْنُ الْأَرْبَعَة، فَأَنَا أُعْطِيكَ اثنَتَيْ عَشْرَ أُوقِيَّةٍ أُخْرَىٰ فِي مُقَابِلِ أَنْ يَكُونَ مَعَنَا الْقِرْد «سَانْدُو».

وَتَعَجَّبَ الرُّبَّانُ أَشَدَّ الْعَجَبِ مِنْ تَمَسُّكِ هَذِهِ الْعَائِلَة بِهَذَا الْقِرْد وَيَدْفَعُونَ فِي مُقَابِلِ أَنْ يَكُونِ مَعَهُم هَذَا الْمَبْلَغ الْكَبِير مِنَ الْمَالِ.

وَأَخِيرًا وَافَقَ الرُّبَّانُ عَلَى هَذَا الطَّلَبِ، وَأَعْطَاهُ «عُمَر خَان» أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ أُوقِيَّة مِنَ الذَّهَبِ، مِمَّا جَعَلَ «بُوبَان» وَأُخْتَهُ «تُحْفَةُ الزَّمَانِ» فِي حَالَةٍ مِنَ السَّعَادَةِ والسُّرُورِ وَأَخَذَا يَحْتَضِنَانِ «سَانْدُو» وَيُقَبِّلاَنِهِ.

وَانْتَقَلَتْ الْعَائِلَةُ وَمَعَهُمْ الْقِرْد «سَانْدُو» إِلَىٰ السَّفِينَةِ التِجَارِيَّة وَمَعَهُم أَمْتِعَتِهِم أَيْضًا، وَسَاعَدَهُمْ فِي ذَلِكَ بَعْضُ الْبَحَّارَةِ، وَأَخْفَىٰ «عُمَر خَان» الصُّرَرَ الْجِلْدِيَّةَ بَيْنَ الْأَمْتِعَةِ بِحَيْثُ لاَ يُلاَحِظُهَا أَحَدٌ مِنْ بَحَّارَةِ السَّفِينَةِ.

وَبَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ وَصَلَتْ السَّفِينَةُ التِجَارِيَّةُ إِلَىٰ مِينَاءٍ كَبِيرٍ يَقَعُ عَلَىٰ سَاحِلِ مَدِينَةٍ كَبِيرَةٍ تُسَمَّىٰ «سُورَاتُو».

وَغَادَرَ «عُمَر خَان» وَعَائِلَتُهُ وَمَعَهُمْ «سَانْدُو» السَّفِينَةَ التِجَارِيَّةَ، وَعَنْ طَرِيقِ أَحَدِ السَّمَاسِرَةِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَسْتَأْجِرَ بَيْتًا فَاخِرًا، كَمَا اسْتَأْجَرَ عَدَدًا مِنَ الْخَدَمِ وَالْحُرَّاسِ لِيَكُونَ بَيْتُهُ آمِنًا، وَجَلَبَ إِلَيْهِ كُلَّ مُسْتَلْزَمَاتِ الْحَيَاةِ مِنْ مَأْكَلٍ وَمَشْرَبٍ وَمَلْبَسٍ فَاخِرٍ لَهُ وَلِزَوْجَتِهِ وَأَوْلاَدِهِ.

وَبَعْدَ عِدَّةِ أَيَّامٍ سَرَتْ فِي أَرْجَاءِ مَدِينَةِ «سُورَاتُو» شَائِعَةٌ مَفَادُهَا أَنَّ التَّاجِرَ «عُمَر

خَان» مِنْ أَغْنَىٰ التُّجَّارِ فِي الْعَالَمِ، وَلَقَدْ حَضَرَ إِلَىٰ هَذِهِ الْمَدِينَةِ لِعَقْدِ صَفَقَاتٍ تِجَارِيَّةٍ ضَخْمَةٍ فَهَرَعَ إِلَيْهِ أَكَابِرُ التُّجَّارِ فِي الْمَدِينَةِ، فَبَدَأَتْ جَلَسَاتُ الْعَمَلِ بَيْنَ «عُمَر خَان» وَهَؤُلاَءِ التُّجَّارِ، وَوَعَدَهُم بِأَنَّهُ سَيَعْقِدُ مَعَ كُلٍّ مِنْهُمْ صَفْقَةً تِجَارِيَّةً كَبِيرَةً، وَلَكِنْ قَبْلَ ذَلِكَ لاَبُدَّ مَنْ أَنْ يَشْتَرِي سَفِينَةً تِجَارِيَّةً ضَخْمَةً، وَأَنْ يَكْتُبَ عَلَيْهَا «عُمَر خَان».

وَبِالْفِعْلِ وَجَدَ «عُمَر خَان» السَّفِينَةَ الْمَنْشُودَة، وَدَفَعَ ثَمَنَهَا فَوْرًا، وَكَتَبَ اسْمَهُ عَلَيْهَا، وَزَوَّدَهَا بِطَاقَمٍ كَبِيرٍ مِنَ البَحَّارَةِ، وَمَلأَهَا بِأَصْنَافٍ شَتَّىٰ مِنَ المَوَادِّ التِجَارِيَّةِ.

وَفِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ مِنْ أَحَدِ الْأَيَّامِ الْمُشْرِقَةِ أَبْحَرَتْ السَّفِينَةُ التِّجَارِيَّةُ الضَّخْمَةُ وَالَّتِي تَحْمِلُ اسْمَ «عُمَر خَان» وَذَلِكَ مِنْ مَيْنَاءِ مَدِينَةِ «سُورَاتُو» مُتَوَجِهَةً نَاحِيَةَ الْخَلِيجِ الْعَرَبِّي حَيْثُ تَقَعُ مَدِينَةُ أُسْرَةِ البَحَّارِ «عُمَر خَان»، وَعَلَيْهَا بَضَائِعُ تِجَارِيَّة هَائِلَةٍ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ وَلَوْنٍ، وَفِي مُقَدِّمَةِ السَّفِينَةِ وَقَفَ الزَّوْجَانِ الْمُخْلِصَانِ «عُمَر خَان» وَ «چِي چِي بَان» وَمَعَهُمَا الْأَبْنَاءُ الْأَعِزَّاءُ «بُوبَان» وَأُخْتُهُ «تُحْفَةُ الزَّمَانِ» وَمَعَهُمَا هَذَا الْقِرْدُ الرَّائِع «سَانْدُو» وَالْكُلُّ سَعِيدٌ بِهَذِهِ النِّهَايَةِ وَمُتَلَهِّفِينَ لِلْوُصُولِ إِلَىٰ أَرْضِ الْوَطَنِ حَيْثُ يُوجَدُ الْأَهْل وَالْأَحِبَّةُ وَالْأَصْحَابُ.

وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ اسْتَيْقَظَتْ «أُم عُمَر خَان» مِنْ نَوْمِهَا فَرِحَةً مُسْتَبْشِرَةً، وَأَسْرَعَتْ نَاحِيَةَ زَوْجِهَا «وَالِد عُمَر خَان» وَقَالَت لَهُ وَهِيَ فِي سَعَادَةٍ غَامِرَةٍ:

- أَبْشِرْ يَا أَبُو عُمَر ... أَبْشِرْ فَإِنَّ ابْنَنَا «عُمَر» بِخَيْرٍ وَسَوْفَ يَعُودُ إِلَيْنَا قَرِيبًا جِدًّا.

ابْتَسَمَ الْوَالِدُ، وَكَانَ قَدْ نَسِيَ الابْتِسَامَ مِنْ بَعْدِ رِحِيلِ وَلَدِهِ مُنْذُ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ، وَقَالَ:

- مَاذَا تَقُولِينَ يَا أُمَّ عُمَر؟ أَيَعُودُ ابْنُنَا عُمَر بَعْدَ كُلِّ هَذِهِ الْغَيْبَةِ الطَّوِيلَةِ؟

قَالَتْ زَوْجَتُهُ وَالابْتِسَامَةُ لاَ تُغَادِرُ وَجْهَهَا:

- لَقَدْ رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ هَذِهِ اللَّيْلَةَ ابْنَنَا «عُمَر» وَهُوَ يَقِفُ سَعِيدًا فِي مُقَدِّمَةِ

سَفِينَتِهِ الْمَكْتُوبِ عَلَيْهَا اسْمُهُ، وَبِجَوَارِهِ فَتَاةٌ رَائِعَةُ الْجَمَالِ أَظُنُّ أَنَّهَا زَوْجَتُهُ وَبِجِوَارِهِمَا وَلَدٌ كَأَنَّهُ الْبَدْرُ، وَبِنْتٌ فَاقَتْ فِي جَمَالِهَا كُلَّ حَدٍّ، وَأَظُنُّ أَيْضًا أَنَّهُمَا أَوْلاَدُ «عُمَر» وَالْكُلُّ فَرِحٌ مَسْرُورٌ مُبْتَهِجٌ.

زَادَتْ ابْتِسَامَةُ الشَّيْخِ الْكَبِيرِ وَقَالَ:

– اللَّهُمَّ حَقِّقْ لَنَا هَذِهِ الرُّؤْيَا ... وَأَرْجِعَ ابْنَنَا «عُمَر» سَالِمًا غَانِمًا ...

وَمَا هِيَ سِوَىٰ لَحَظَاتٍ حَتَّىٰ طَرَقَ بَابَهُمَا أَحَدُ شَبَابِ الْجِيرَانِ وَهُوَ يَصْرُخُ:

– افْتَحُوا الْبَابَ ... افْتَحُوا الْبَابَ

وَأَسْرَعَتْ أُمُّ «عُمَر» فِي لَهْفَةٍ وَفَتَحَتْ الْبَابَ، فَإِذَا بِهَذَا الْجَارِ يَصْرُخُ وَيَكَادُ يَطِيرُ مِنَ الْفَرَحِ وَصَاحَ قَائِلاً:

– أَبْشِرِي يَا أُمَّ عُمَر ... أَبْشِرْ يَا أَبَا عُمَر ... لَقَدْ عَادَ ابْنُكُمَا عَلَىٰ سَفِينَتِهِ الضَّخْمَةِ الْمَكْتُوبِ عَلَيْهَا اسْمُهُ، عَادَ وَمَعَهُ أُسْرَتُهُ، عَادَ وَمَعَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ.

قَالَتْ أُمُّ عُمَر وَالْفَرْحَةُ الْعَارِمَةُ تَكْسُو وَجْهَهَا:

– أَمَا قُلْتُ لَكَ يَا أَبَا عُمَر ... هَذِهِ هِيَ الرُّؤْيَا الَّتِي رَأَيْتُهَا فِي الْمَنَامِ هَذِهِ اللَّيْلَةَ.

صَاحَ الشَّيْخُ فَرِحًا مَسْرُورًا قَائِلاً:

– اللهُ أَكْبَرُ ... اللهُ أَكْبَرُ ... الْحَمْدُ للهِ ... الْحَمْدُ للهِ ...

وَوَقَفَ أَبُو عُمَر وَزَوْجَتُهُ عَلَىٰ بَابِ الدَّارِ فِي انْتِظَارِ ابْنِهُمَا الْغَائِب مُنْذُ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ وَبَعْدَ بُرْهَةٍ مِنَ الْوَقْتِ ظَهَرَ «عُمَر خَان» وَأُسْرَتُهُ أَمَامَ دَارِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ ... وَلَقَدْ كَانَ لِقَاءً رائعًا مَلِيئاً بِالابْتِسَامَاتِ وَالدُّمُوعِ وَالْفَرْحَةِ وَالسَّعَادَةِ.

وَبَعْدَ أَنْ قَبَّلَ «عُمَر خَان» أَيْدِي أَبَوَيْهِ، قَدَّمَ لَهُمَا زَوْجَتَهُ وَأَوْلاَدَهُ قَائِلاً:

– أَبِي الْحَبِيب، أُمِّي الْحَبِيبة أُقَدِّمُ لَكُمَا زَوْجَتِي الْحَبِيبَة «چِي چِي بَان».

وَتَقَدَّمَتْ «چِي چِي بَان» وَقَبَّلَتْ أَيْدِي وَالِدِ وَوَالِدَةِ زَوْجِهَا «عُمَر خَان» فِي احْتِرَامٍ وَوقَارٍ وَبَهَرَتْ «چِي چِي بَان» الْوَالِدَانِ بِجَمَالِهَا الْأَخَّاذ.

وَقَدَّمَ «عُمَر خَان» وَلَدَيْهِ إِلَىٰ أَبِيهِ وَأُمِّهِ قَائِلاً:

– وَهَذَا ابْنِي «بُوبَان» وَهَذِهِ ابْنَتِي «تُحْفَةُ الزَّمَانِ».

فَأَقْبَلاَ عَلَىٰ الْحَفِيدَينِ يُقَبِّلاَهُمَا وَيَضُمَّانِهِمَا إِلَىٰ صَدْرِهِمَا فِي حَنَانٍ وَشَوْقٍ.

وَابْتَسَمَ «عُمَر خَان» وَهُوَ يُقَدِّم الْقِرْدَ «سَانْدُو» إِلَىٰ أَبِيهِ وَأُمِّهِ قَائِلاً:

– وَهَذَا «سَانْدُو» صَدِيقُ الْعَائِلَةِ الَّذِي نُحِبُّهُ وَيُحِبُّنَا.

وَأَخَذَ «سَانْدُو» يَقْفِزُ فِي الْهَوَاءِ وَيَتَشَقْلَبُ فَرَحًا وسُرُورًا. وَالْجَمِيعُ يَضْحَكُونَ وَيُصَفِّقُونَ لَهُ. ثُمَّ قَالَ «عُمَر خَان»:

– لَقَدْ مَنَحَنا اللهُ خَيْرًا كَثِيرًا فَوْقَ مَا نَتَصَوَّرُ، وَسَوْفَ يَكُونُ لِبَلْدَتِنَا هَذِهِ نَصِيبٌ مِنْ هَذَا الْخَيْر لِيَعِيشُوا جَمِيعًا حَيَاةَ سَخَاءٍ وَرَخَاءٍ.

وَبَنَىٰ «عُمَر خَان» قَصْرًا كَبِيرًا لَهُ وَلِزَوْجَتِهِ وَأَوْلاَدِهِ وَوَالِدِيهِ لِيَعِيشُوا مَعًا حَيَاةً يَمْلَؤُهَا الْحُبُّ وَالْحَنَانُ وَالْبَرَكَةُ.

وَعِنْدَمَا انْفَرَدَتْ «چِي چِي بَان» بَزَوْجِهَا «عُمَر خَان» يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ سَأَلَتْهُ:

- زَوْجِي الْحَبِيب ... كَيْفَ تَحَمَّلْنَا كُلَّ هَذِهِ الْأَهْوَال الَّتِي وَاجَهَتنَا طِوَالَ حَيَاتِنَا حَتَّىٰ كَانَتْ هَذِهِ النِّهَايَة السَّعِيدَة الرَّائِعَة.

أَجَابَ زَوجُهَا:

- إِنَّهُ الصَّبْرُ وَالإِيمَانُ وَالإِخْلاَصُ ثُمَّ دُعَاءُ الْوَالِدَيْنِ.

تَمَّتْ

المحتويات

الْمُقَدِّمَةُ 5

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ

عُمَرْخَان ... أَصْلُ الْحِكَايَةِ 6

الْفَصْلُ الثَّانِي

الْهُجُومُ الْمُرَوِّع 12

الْفَصْلُ الثَّالِثُ

جَزِيرَةُ طَالُوسِ وَقَصْرُ الأَمِيرِ مِحْرَازٍ 23

الْفَصْلُ الرَّابِعُ

چِي چِي بَان 31

الْفَصْلُ الْخَامِسُ

الزَّوَاجُ السَّعِيدُ 42

الْفَصْلُ السَّادِسُ

الْجَرِيمَةُ وَالْعِقَابُ..... 51

الْفَصْلُ السَّابِعُ

الْمُطَارَدَةُ الْمُخِيفَةُ..... 59

الْفَصْلُ الثَّامِنُ

جَزِيرَةُ الْأَحْلَامِ..... 70

الْفَصْلُ التَّاسِعُ

أَطْفَالٌ عَلَىٰ الْجَزِيرَةِ..... 76

الْفَصْلُ الْعَاشِرُ

الزِّلْزَالُ..... 84

الْفَصْلُ الْحَادِي عَشَر

الْكَنْزُ..... 94

الْفَصْلُ الثَّانِي عَشَر

رَوْعَةُ اللِّقَاءِ..... 105

الْمُحْتويات..... 118

تنفيذ المطبعة العصرية
صيدا – لبنان
+ 961 7 230841
info@alassrya.com
www.alassrya.com